على خط الإنتاج

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الرويلي، جميل مؤنس حمدان
على خط الإنتاج. / جميل مؤنس حمدان الرويلي- الجوف، ١٤٤٠هـ
٨٠ص ، ١٤ × ٢١ سم
ردمك: ٥-٩٦٩٦-٠٢-٦٠٣-٩٧٨
١- التغير الاجتماعي - مقالات ومحاضرات أ. العنوان
ديوي ٣٠١,٤٢ ١٤٤٠/٥٨٠٦

رقم الإيداع : ١٤٤٠/٥٨٠٦
ردمك: ٥-٩٦٩٦-٠٢-٦٠٣-٩٧٨

١٤٤٠هـ - ٢٠١٩م

على خط الإنتاج

تأليف

جميل الرويلي

الطبعة الأولى

١٤٤٠هـ - ٢٠١٩م

بسم الله الرحمن الرحيم

المحتويات

المعنى هو الأصل

التحقيق مع العالم أصعب بكثير من العيش فيه!. والعالم كأي سلطة باطشة سيشعر بأنك تحاول فهمه لتتخلص منه أو لتسلبه أدوات القوة والسيطرة التي يمارسها عليك فواضح جداً أنك لا تريد فعل ما يفعله الاخرون وهذه آفة مخلة بأي نظام!. فكلما زاد تأملك لتفاصيل منظومة الكون من حولك الطبيعية منها والإنسانية كلما أمعنت أشياء هذه المنظومة في النفور منك وشرع الكل المتكامل بمعاقبتك عن طريق أدواته في أرض الواقع الذين قد يكونون الأنظمة الحكومية أو المجتمع أو المادة أو غرائزك الطبيعية المتورطة بالاحتياج للآخرين، حتى والدتك التي تنتظر رؤيتك في قمة المشابهة لمن حولك من بني جلدتك!. ستكتشف أنك مستنبت في ذيل سياقات كونية قديمة وأنك من الداخل شبه مهزوم وأنك بدأت المعركة متأخراً. جسدك الذي تحول إلى لبنة في بناء المنظومة الكونية سيرتجف خوفاً وتردداً وأنت تخطو خطوة إلى الوراء لتنظر للعالم من بعيد بعين الناقد المتفرّس المنابذ المتحفز للنزال!.

المعرفة هي المعركة الوحيدة التي تستطيع الموت فيها وأنت مطمئن تماماً لأنك قاتلت من أجل الهدف الصحيح والغاية الأنبل فأنت كل المعركة وكل الجيش وكل الأحداث وكل القتلى ولن أقول كل المنتصرين لأنك لن تنتصر في النهاية ولكنك ستفهم لماذا كان عليك أن تقاتل ولماذا عليك أن تموت!. لو بحثت في أغلب أو ربما كل أحزان الإنسان لوجدتها تنبع من شعور خوف خفي بأنه ينفق

أثمن وأغلى ما لديه وهو عمره في الشيء الذي لا يستحق ذلك، فلا شيء يخص الإنسان لوحده سوى سنوات عمره وما عدى ذلك فكله مشترك بما في ذلك أفكاره ومشاعره ولحمه ودمه وهذا هو منبع هاجس فكرة الحرية، الخوف من أن تكون مستغفلا في عملية سطو جماعية على الأعمار حيث يوكل اليك السرّاق مهمة العيش بدلاً منهم في مهام مجيرة لصالح أعمارهم بينما هم يتفرغون لأعمارهم الحقيقية، فخياراتك الحياتية هي أفعالك وأفعالك هي عمرك الحقيقي!.

من هنا تومض الفكرة، فكرة أن تعيش أو تُستَهلَك! فكرة أن تكون متشبعاً بلحظات عمرك، أن تحاكم العالم لأنك ببساطة نتيجة له وجزء منه وترس من تروس ماكنته الكبيرة التي لا ينبغي لك أن تتحرك فيها دون أن تعلم لماذا؟!. فكرة أن تكون موجوداً وجوداً يخصك وحدك لم يسبق لأحد أن كان موجوداً بنفس تلك الدرجة وذلك التركيب من الوجود، لأجل هذا يحاسبنا الله عز وجل فرادى يوم القيامة مع أننا قد نفعل نفس الأشياء لأنه يعلم وجودنا الخاص جداً الذي تحتم دقة العدالة الإلهية اخضاعه لمحاكمة خاصة به، ذلك الوجود الشخصي الذي يموت كثير من البشر قبل أن يتعرفوا عليه أو حتى يفكروا بالبحث عنه!.

ليس الوجود إلا الماهية، وليست الماهية إلا المعنى، فالمعنى هو أصل الأشياء!. تصور الكون منشؤه المعنى، فأصل تصور الكون هو الله عز وجل حين كان الله ولا شيء غير الله، فهو سبحانه معنى

في عقولنا وقلوبنا لا نراه ولا نسمعه ولا نتكلم معه. لهذا نجد المعنى يمتلك فوقيةً عجيبة على المتجسدات في كل شيء تقريباً، فالحب أرقى من الجنس، والعقيدة أرقى من العبادة، والروح أرقى من الجسد، والفكرة أرقى من الفعل. كل شيء مقدس وعظيم ستجده في الجانب المعنوي من الكون بينما الجسد ليس إلا أداة لتصديق المعنى أو تكذيبه!.

في دراسات تاريخ الحضارة البشرية ستجد أول ما يبحثون عنه هو «كيف كانت أفكار الإنسان في تلك الحقبة من الزمن؟». وحين يدرسون الآثار تجدهم يهتمون كثيراً بتفسير ما يجدونه من أدوات ليعلموا منظومات الأفكار التي رافقت تلك الأدوات!. فالحضارة معنى وليست أداة، بينما الأداة مجرد شاهد يثبت وجود تلك الحضارة المعنوية أو ينفيه. فلماذا اليوم حين نتحدث عن «فعل التحضر» نجدنا نتحدث عن الأداة وننسى المعنى؟!!. ولماذا يرى علماء الحضارات والتاريخ الإنساني بأن حضارة البشر بدأت حين تعلم الإنسان الكتابة فصار يورّث أفكاره للأجيال المتعاقبة، ثم نحن اليوم نرى التحضر باحتقار الموروث العلمي والحضاري؟!!. وإن كان العقل الذي ميز الإنسان على بقية الكائنات ليس إلا «المعنى الفاعل» في رؤوسنا فلماذا جاء المذهب الإنسانوي بمقولة «الإنسان أولاً» ليعلي من شأن المادي على حساب المعنوي، ومن شأن الجسد البشري على حساب الذات الإلهية؟!.

لكل عصر من عصور البشرية سياقات تطغى فيها جوانب معينة على جوانب أخرى فيدخل المجموع البشري في حالة من توالد العمى، هي ذاتها التي وصفها القران بالظلمات التي بعضها فوق بعض. ففي عصور غياب الأديان وقبل بداية العلم التجريبي كان البشر يصنعون لكل شيء يخيفهم إله يعبدونه لكي يسترضوا ذلك الشيء المخيف!. فتجد في آلهة الاغريق والبابليين آلهة المطر والزرع والنار والشفاء وغير ذلك. في تلك الفترات تحولت حياة البشر إلى منظومات من المعاني القائمة على الخرافة لأن الإنسان في تلك المرحلة كان لديه من المعاني المبهمة عن الكون أكثر مما لديه من التفسير والأدوات!. وبعد كل نبي يبعثه الله يخرج «مبطلون» يحولون معاني رسالة ذلك النبي إلى خرافة مقدسة تخدم مصالحهم الدنيوية فيعود الإنسان إلى الخرافة من جديد، ثم يبعث الله نبياً آخر ليعيد البشر إلى السياق الحقيقي لقصة الإنسان المستخلف في الأرض، وهكذا كل مرة.

حتى قبل بداية القرن الخامس عشر الميلادي كانت حياة الإنسان الغربي مرتبطة بالمعنى أكثر من المادة. جاء بعدها العلم التجريبي الذي بلغ تأثيره ذروته في نهاية القرن التاسع عشر فأصبحت أغلب أسرار الكون مفسرة للإنسان الغربي تفسيراً يرى بأنه علمي قطعي الصحة فدخل الغرب بأكمله في دورة جديدة من توالد العمى ليتطرف في بناء تصور الكون على المادة والتجربة العلمية وينبذ

المعنى كلياً كالأديان والأخلاق. في هذه الفترة خرج الإنسان الغربي من جديد من سياق «قصة الإنسان» ودخل في سلسلة النشوء والارتقاء لداروين ليكون الكائن الأخير الذي أنتجته الطبيعة بعد القرد!. صاروا يمنحون الطبيعة صفة الإله كما كان الإنسان في فترة غياب الأديان حين صنع آلهة المطر والزرع والشفاء، ولكن بشكل آخر!.

لا يمكن تجاهل فكرة أن المعنى هو أصل كل شيء، وأن المعنى سبق كل الوجود، وأن هذا الوجود بحبكته المتقنة شيء غائي. هذا يحتم على من تأمل الكون كثيراً البحث عن «المعنى الحقيقي الثابت» لنشأة الكون وليس كيف نشأ الكون بشكل مادي!. فإن أردت الوصول لذلك المعنى الحقيقي عن طريق استقراء المتجسدات المصدقة لذلك المعنى فهي الكون بكل تفاصيله من أرض وسماء ومخلوقات وموت وحياة وغير ذلك. أما إن أردت المعنى الحقيقي الثابت للكون على هيئة «علم محض» فلن تجد ذلك إلا في الوحي، وهذا ما أشار إليه الله عز وجل حين قال: ﴿**وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ**﴾ [سورة النحل: ٨٩].

شعوب وقبائل

كل ما تراه حولك من منظومات كونية وبشرية هو من اختراع البشر، الحكومات والمجتمعات والمذاهب الحياتية وأدوات العيش والبقاء والصراع ولم يتدخل الله سبحانه في كل ذلك إلا على المستوى الفردي للإنسان حين بعث له الأنبياء ليخبروه من الله وما هو الكون ومن هو الإنسان وما هو الخير والشر وما هو السياق السابق لوجوده الطويل على هذا الكوكب!.

لم تكن الفلسفة تبحث عن طرق الوصول للممكنات ولا كيف نسيطر على المحسوس والمادي ولكنها بحثت تبرير كل ذلك وأصل كل ذلك! ولم تكن الغاية من الأديان هي الذهاب بالإنسان إلى الجنة ولكنها جاءت لتنقذ الإنسان من عبودية سياقات الانحراف التي قد يولد فيها فيظنها هي السياق الحقيقي العام والأوحد مع أنها سياقات ضئيلة مجتزاة من سياق طويلٍ باقٍ ولم يمت، لا في حقيقته ولا في غاياته ولا في أدواته ولهذا كانت مهمة الأنبياء واضحة جداً ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ [سورة الرعد:٤٠].

لن يستطيع الإنسان العيش خارج "قصته الحقيقية" إلا مستغفَلاً ومستَغلاً ومنفقاً لعمره في خدمة أعمار الآخرين، وهذا هو أصل "قلق العبودية" وثنائية السيد والعبد!. الصراع الإنساني صراع للاستحواذ على الأعمار قبل أن يكون صراعاً على السلطة والمال والجنس!. فحين يخرج الإنسان من سياق القصة الأصلية الأولى التي بني عليها الوجود سيدخل في سياقات بشرية كونتها

المنفعة المحضة المبنية على الاستغلال والاخضاع لسطوة القوة والحتمية المادية وهي ذاتها القوانين التي يعمل تحتها أي حيوان ينحصر وجوده في قانون الغاب المسمى صراع البقاء، حين يأكل القوي الضعيف ولكن بنسختها الناعمة "الغني يشتري الفقير". وهي ذاتها الانتخاب الطبيعي حيث تنقرض السلالات الأقل قدرة على مواجهة الصراع لتبقى السلالات المستحوذة على أدوات البقاء المادية من قوة وسلطة وصلاحيات عليا تمنحها حق الإقتيات على أعمار الكائنات الأخرى!.

لا يمكن لكل فرد في العالم أن تكون حياته هي القصة كلها!، مهما كانت قصته الشخصية عظيمة ستبقى مبتورة السياق، مليئة بالاستفهامات والأجوبة غير المنطقية والتصور المغلوط للكون. وقد كان الخطاب الإلهي في القران واضحاً حين امتن على كفار قريش ومن سيقرأ القران من بعدهم بأنه حملهم في السفينة مع نوح!، ﴿ **إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ**﴾ [الحاقة:١١]. مع أنهم في ذلك الحين لم يكونوا سوى سلالات لم تولد بعد لكنهم جزء من قصة الانسان ولهم دورهم فيها الذي ينبغي أن يقوموا به، وحقهم الذي ينبغي أن يحصلوا عليه!.

قصة الإنسان!،أدوارنا في الحياة!، السيناريوهات والأحداث، ردود أفعالنا اللحظية، مشاعرنا وهواجسنا وكل ذلك، مرده إلى الثالوث الوجودي الأزلي (المكان، الزمان، التصور)!. كيف

ستتصور العاشقة حفل زفافها على حبيبها وكيف هو الكون والمستقبل في عينها؟!. وكيف هو في عين فتاة ستتزوج مكرهة قد تشاركها نفس المكان والزمان؟!. إنها الاعتبارات والمعاني والتصور الكلي لما سبق هي من يصنع معنى الحدث ومعنى القصة ومعنى الحياة ومعنى الكون برمته!.

كان الفلاسفة يحاولون الوصول لتصور شامل شديد الحبكة بحيث يصبح الكون كورقة الرياضيات المسطرة، فأي نقطة عليه يمكن الوصول اليها والانطلاق منها بشكل منطقي ومحسوب ولكنهم اكتشفوا أن بعض الأسطر تمتد خارج الورقة حيث تقع نقاط ما بعد الموت وما قبل الولادة!. واكتشفوا أن الكون ليس كوناً واحداً وإنما مجموعة من العوالم المتوازية منها ما هو داخل الإنسان كفرد اجتماعي، ومنها ما هو داخل كل إنسان ككائن طبيعي ومنها ما هو شمولي يجمع الإنسان والحيوان والنبات والمادة. وأخيراً اكتشفوا أن هناك عالم حقيقي يعيش معهم في كونهم المادي المحسوس تتحرك فيه الأشياء أسرع من الضوء والصوت وبأحجام أصغر من الذرة كما في فيزياء الكم حيث يمكن أن تتحرك الأشياء خارج نطاق الزمن كلياً وتوجد في أكثر من مكان في الوقت نفسه!.

لم يكن الإنسان حتى عهد قريب ينظر للحياة على أنها صراع مغالبة مستمرة من أجل البقاء فقط، وكان لديه الكثير من الأشياء التي يعيش عليها ولأجلها وكان المال مجرد شيء منها لا أكثر!. وقد

تجد الرجل الفقير شيخاً مهيباً في مجتمعه وله قيمته وكلمته المسموعة لأنه يعيش في مجتمع يستمد قيم الأشياء من مصادر روحية واجتماعية ومعنوية كثيرة وليس المال فقط. حينها كانوا ينظرون لمن يكنز المال ولا يساعد به الآخرين على أنه "شخص رديء"، فلو لم يكن رديئاً لا قيمة له لما كان المال مصدر قيمته الوحيد مما جعله يحرص عليه كل هذا الحرص. كان الإنسان ثري المعنى غزير الخصال وكانت عواطفه أشبه بالعهود والمواثيق وكانت أفكاره أكثر رسوخاً وثباتاً وتحرراً من تبعيتها للحتميات المادية البلهاء بما فيها جسده!.

ولم تكن التجارة في حياة البشر قديماً وحديثاً سراً غامضاً لا يمكن فهمه!. كانت التجارة ومازالت "أخذ شيء وإعطاء شيء" في معاملات تبادل للمنفعة لكي يسد كل فرد احتياجاته دون أن يظلم الآخر وكان قوامها الاتفاق والتراضي. ومنذ أن اخترع البشر العملات كقيمة لتبادل الأشياء ظهرت طبقة جشعة لاحظت أن مقايضة سلعة بسلعة كانت تحد من طمعهم في الاستحواذ على الأشياء. فصاحب الفرس لن يبادلني فرسه ببقرتي إن لم يكن محتاجاً للبقرة!. أما مع وجود العملات فكلما زاد ما لدي منها كلما استطعت الحصول على ما أريد وافتقر الناس إلى ما عندي وزادت سلطتي واستحواذي عليهم. ومع تطور أنماط العيش وازدياد اعداد البشر تحولت التجارة من وسيلة آمنة لتبادل المنافع بين الناس إلى غاية من غايات الوجود وأداة من أدوات الإذلال والاستعباد والسلطة حتى

بلغت ما بلغته الرأسمالية اليوم من قوة مخيفة أصبحت فيها التجارة أداة من أدوات صناعة الإنسان والمجتمعات وتغيير مجرى التاريخ على نطاق كوني عالمي!.

ولو نظرت للاستثمار ستجده قائماً على مبدأ كثرة التبادل التجاري في السوق الواحد. وطالما أن التبادل التجاري يقوم على مبدأ تبادل المنافع والاحتياجات فكلما زادت احتياجات الناس زاد التبادل التجاري وزادت عوائد الاستثمار وفرص التنويع فيه. ولكي يزداد الاستثمار انتعاشاً ولا يصل إلى مرحلة التشبع فلا بد من خلق الاحتياجات في المجتمع كل حين ونقل سلع جديدة من طبقة الرفاهيات إلى طبقة الضروريات لتصبح كالماء والرغيف والعافية وهنا يأتي دور الدعاية والإعلان والتنميط الاجتماعي والموضة وكل هذه الترهات!.

في المجتمع الإنساني الطبيعي البعيد عن تأثيرات الدعاية والاعلام والتفتيت الاجتماعي ستجد أن ضروريات الحياة ثابتة وإن زادت فسيكون ذلك بقدر محدود جداً، فمحور ضروريات المجتمع هي الصحة والغذاء والسكن والتعليم والأمن. في مثل هذه المجتمعات المستقرة ذات المنظومات الأخلاقية والسلوكية الرزينة ليس من السهل تحويل التفاهة وفضول الأشياء إلى سلعة مهمة لتدخل في طبقة الضروريات فيزداد التبادل التجاري وتنمو أرصدة أصحاب رؤوس الأموال من التجار. لأجل ذلك كانت

المجتمعات مصب اهتمام الرأسمالية فقبل دخول الدولار إليها لابد من القضاء على معوقات التلاعب باهتمامات المجتمع وتعطيل كل العلاقات التكافلية فيه التي تجعله أقل اعتماداً على المال. فللرأسمالية طقوس ستلاحظها قبل وصول الرأسمالية لأي مكان. ستلاحظ انبعاث حالة من الفوضى الاجتماعية على مستوى الأفكار والسلوك يصاحبها زخم اعلامي هائل يهدف لفصل كل شيء عن الآخر ويدعو للإعلاء من روح الفردانية الأنانية والتحرر من القيود، واحتقار الماضي، والانقضاض على النقاط المرجعية في الوعي الجمعي وتدميرها، وستجد أن كل ذلك يحدث بطريقة ممنهجة وخطوات يتم تبريرها بشكل دعائي ناعم.

لم تكن الليبرالية استجابة لواقع يبحث عن نظرية بقدر ما هي اخضاع للواقع ليناسب النظرية الرأسمالية. فالنظرية تقول بأن الدولار الرأسمالي يجب أن يكون قيمة مطلقة لا دين له ولا أخلاق ولا قومية ولا حتى وطناً ولا يوصف إلا بأنه مال! والطبقات التي تقع أسفل الدولار في الهرم الرأسمالي يجب أن تخضع لصفاته هذه وأن تتوافق معه، وهي طبقة الوسائل والأدوات والسلع والزبون والتاجر. وكل هذه الأشياء ستجد أن محلها التشريعات والمجتمع والأسواق ولهذا فالرأسمالية تعيد خلق الأمم من جديد على المستوى العقدي والأخلاقي والسلوكي والتشريعي والمادي السلعي.

عام ١٨٤٧م قبل اكتشاف النفط والسيارة والطائرة والانترنت

قال كارل ماركس في "البيان الشيوعي"، واصفاً مستقبل تأثير الرأسمالية : "فالصناعات القومية الهرمة تدمَّر يوميا لتحل محلها صناعات جديدة، أصبح اعتمادها مسألة حيوية بالنسبة إلى جميع الأمم المتحضرة، صناعات لم تعد تستعمل المواد الأولية المحلية، بل المواد الأولية من أقصى المناطق، صناعات لا تُستهلك منتجاتها في البلد نفسه فحسب، بل أيضا في جميع أنحاء العالم. فمكان الحاجات القديمة، التي كانت المنتجات المحلية تسدُّها، تحُل حاجات جديدة تتطلب لإشباعها منتَجات أقصى البلدان والأقاليم. ومحل الاكتفاء الذاتي الإقليمي والقومي والانعزال القديم، تقوم علاقات شاملة في كل النواحي، وتقوم تبعية متبادلة شاملة بين الأمم. وستسعى لجعل كل مكان في الأرض صورة منها" .

سأتحدث عن العولمة لاحقاً، فما أردته من ايراد هذا النص هو الإشارة إلى أن ما يحدث في بعض المجتمعات التي تهب عليها رياح الرأسمالية ليس ناتجاً عن توافق ناضج حول فكرة محلية نبعت من احتياجات وتطلعات شعوب تلك المجتمعات ولكنها رضوخ مهين لمتطلبات الرأسمالية التي تلزم المجتمعات بتغيير واقعها بلا جدال ليوافق نظريتها الرأسمالية. وليس أشد سخفاً ممن يقول بأن الانصياع للنمط الرأسمالي يشكل دخولاً إلى بيئة المجتمع الطبيعي!. فالطبيعي في نمو المجتمعات وتطورها دائماً يحدث بشكل تفاعلي وتوافقي ينبع من عناصر الانتماء والتاريخ والعقل الجمعي الاجتماعي والمنفعة

المحققة لاحتياجات المجموع. بهذه الطريقة نشأت الأسرة والقبيلة والشعوب والأعراق وكل التكتلات البشرية الطبيعية التي على الرغم من بدائيتها كانت تؤمن بالحرية والمعنى كوسيلة للخلاص الحياتي أكثر من ايمانها بعبودية الحتميات المادية!

حين قال الله عز وجل مخاطباً البشر إلى يوم القيامة ﴿**وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا**﴾ [الحجرات:١٣]، كان يشير إلى سنته الماضية في خلقه بأن البشر سيبقون متمايزين ومختلفين في كثير من صفاتهم ومنظوماتهم الاجتماعية على مستوى الشعوب، ولهذا وجب عليهم أن يتعارفوا فالمتشابهات المتطابقة لا تحتاج للتعارف. فهذا هو الوضع الطبيعي، أن تكون حضارة الشعوب من سلالات المعاني والأفكار هي التي تربطهم بالآخرين فتستأنس كل أمة بالأخرى ليكون الوجود الإنساني أكثر رحابة وتنوعاً وجمالاً في منظومات ناضجة وأطر لم تنتج بعشوائية كما هي الحال في المجتمع الرأسمالي القائم على رعاية الفوضى وصراع البقاء!

الإنسان الممارس

لم يكن الإنسان الصناعي الممارس يملك المزيد من الوقت ليمنحه للفلسفة والعلوم الاجتماعية لتحل له هذا الكم الهائل والمعقد من أسئلة الوجود التي يحتاج المجتمع الإنساني الوصول لأجوبتها. فقرر اختطاف الواقع والمجتمع والانطلاق به بعيداً على طريق التجربة والتطبيق والممارسة، تارةً بالعمل وتارةً بالمتعة وتارةً أخرى بالخرافة المدهشة والخيال العلمي!. وبعد أن أمضى البشر قروناً طويلة يتمسكون بأهمية الفكرة العقدية ومركزيتها في الحياة كمركز دائرة التصور الكوني ويتقاتلون بسببها، حلت فكرة صراع البقاء البيولوجية بديلاً لها، وتم إعلاء الفكرة المادية على المعنى الإنساني والمقدس. فالقوي يحكم حياة الضعيف والغني يشتري عمر الفقير، وكل شيء سلعة وكل سلعة لها ثمن. أما الأديان فمنذ أن سقطت كنيسة الغرب الفاسدة التي كانت تحتكر تفسير الكون وأدوار البشر وتسطو على أعمارهم وأسرارهم على كراسي الاعتراف لم يعد يثق فيها أحد وجعلوها أيقونة تمثل كل الأديان!. إنه عصر الإنسان السوبرمان كما يصفه نيتشه الذي عليه أن يحكم الكون بعد أن ماتت فكرة الإله!. عصر الوجودية الرأسمالية الليبرالية حيث يتكاثر الناس كالأرانب ويموتون كالخراف ولا يرون إلا من خلال ثقوب أعينهم!.

استطاعت الحضارة الرأسمالية بآلتها المالية والإعلامية ونظمها الاقتصادية واشرافها على تشكيل عقائد الحكومات والمناهج الحياتية

أن تضع البشرية برمتها «على خط الإنتاج» فإن خرج الانسان عن الخط خرج ناقصاً معطوباً عديم الفائدة، وإن بقي انتهى به الأمر الى منتج جهنمي، الكل يعلم كيف سيتم استهلاكه إلا هو!. منذ أن يولد الطفل فيتم ترقيمه برقم وطني على طريقة مزارع تسمين الأغنام لتسهل مراقبته وتتبعه على خط الإنتاج وحتى اللحظة التي يحصل فيها على رقم جديد لشهادة وفاته، سيكون قد مر بدورة كاملة من التصنيع والاستهلاك بشكل ممنهج!. التعليم سيلعب دوره، والاعلام سيلعب دوره، والدولار سيلعب دوره، والقوانين الليبرالية ستلعب دورها وكل هذه الأدوار تعمل لصناعة الإنسان الممارس التطبيقي المفرغ من ثورة المبدأ وحصانة المقدس وتاريخية الانتماء. وهذا هو الحال في الغرب عموماً.

على اختلاف المجتمعات في الغرب الا أنها متشابهة جداً فقد أضفت عليها الليبرالية الرأسمالية سمة المجتمع الواحد كنتيجة من نتائج العولمة العميقة. الشوارع ليس لها منظومة أخلاقية ولا يوجد فيها إلا النظام العام الأمني والتنظيمي، فتحولت الأخلاق إلى مجرد ذوق عام. ليس لديهم معروف ومنكر اجتماعي يمليه العقل الجمعي فالليبرالية التي جعلت الإنسان محور الكون قد قسمتهم في فئات كثيرة معنوية جعلت لكل شخص معروفه ومنكره، فالوعي الإنساني المتعلق بالانتماء والتاريخ والدين يصنعونه في المنزل فقط، كما تصنع كل عائلة طبقها المفضل من الطعام!. يجتمعون على ما

يجتمع عليه الغرباء من المعاني، الاحترام والحب والجنس والمنفعة والشفقة. رجال ونساء بيض في مجتمع أبيض، بداخل كل واحد فيهم بطة سوداء!.

في مثل هذه المجتمعات تتحول عقيدة الإنسان تجاه المكان والزمان والتصور الكوني إلى «عادة سرية» يمارسها بخفية تحت شعور الشذوذ والعار!. وطالما أن «**قيمة المعنى**» في الشوارع والحياة لم يعد لها ذلك الثقل والاحترام فلكي يحقق الفرد ذاته لا سبيل أمامه إلا أن يجني الكثير من المال أو يمارس الكثير من اللذة!. هو الآن مهيأ للقفز على خط الإنتاج، فالجميع حوله يركضون بهلع وشراهة، والجميع يؤمن بأنه حر لا علاقة له بأحد، وأن حياة كل فرد تخصه وحده، لا يوجد أسرة ولا قبيلة ولا طائفة ولا يوجد «بيت مال الكافرين» ليصرف عليه من الزكاة، بل أن حتى الله لم يعد موجوداً!. ليس هناك المزيد من الخيارات فإما أن تقفز على خط الإنتاج وإما أن تبقى مشرداً في الشارع!.

آخر خطبة ذات معنى اجتماعي وأخلاقي ثقيل ألقيت في الولايات المتحدة الأمريكية كانت خطبة مارتن لوثركنج ومنذ ذلك الحين فقد المجتمع الأمريكي الشعور المشترك وتعطل عقله الجمعي فلا يجتمع الناس إلا في طوابير صناديق الاقتراع!. المضحك في الأمر أن حتى هذا الاجتماع الوحيد في الانتخابات تحول لحفلة تنكرية حين استطاع الرئيس الروسي فلاديمر بوتن الضحك على ذقن

الولايات المتحدة الأمريكية حكومة وشعباً فدلهم على الصندوق الخطأ لينتخبوا أكثر رؤسائهم غباءً، دونالد ترمب!. أما في بريطانيا فقد قرأت منذ أشهر أن بعض الجامعات البريطانية ألغت مسار الفلسفة لعدم جدواه الاقتصادية وقلة عدد المسجلين فيه. لم يعد مهماً للإنسان الغربي أن يتساءل عن «ماهيته»، فالمهم أن يصنع نفسه بشكل يلائم متطلبات سوق العمل ليخرج في النهاية على هيئة منتج جيد!.

حين يجد الإنسان نفسه مرغماً على إنفاق عمره في الشيء الذي لا يستحق فهو خاسر بالفعل، ولأجل هذا هو حزين بالفعل من حيث لا يدري!. هناك ثمة خطأ ما هو لا يدركه ولا يراه لكنه يشعر به. ثمة انقطاع في الفكرة الوجودية والسياق التاريخي الإنساني يشعر بها كحفرة سحيقة تخرج في طريقه من وقت لآخر!. لماذا على الانسان أن يعيش إن لم يكن هو من اختار الدخول لهذا العالم؟!. لماذا عليه أن يبحث عن كل تلك المبررات السخيفة والساذجة ليقبل عبودية الأشياء له وعبودية الاخرين تحت ضغط حتمية المادة والغريزة وأن يتجاهل فكرة أنه بالأصل قد ولد خاسراً لأنه جاء رغماً عن أنفه؟!. لماذا عليه أن يقبل بالحرية الحقيرة في عالم هو في حقيقته مجرد سجن كبير ستكون أقصى درجات الحرية فيه أن يأذن السجان للسجين باللعب في فناء السجن الخارجي!. لماذا على الانسان تطوير العالم وبناؤه لصالح الأشرار الذين يسيطرون عليه ولن يترددوا في تحويله

إلى كومة من دماء وبارود كما في الحرب العالمية الأولى والثانية؟!، أو تحويله إلى مصنع كبير لتسليع كل شيء وتدنيس كل مقدس!. لماذا عليه أن يعمل لدى صاحب رأس المال في الشركة ليحصل كل شهر على حفنة من المال مع أنه ينفق نصف عمره في ذلك بينما يذهب صاحب الشركة بالمال كله وهو لا يعمل أي شيء ؟!. سيقولون بأن هذا هو سياق الواقع الذي نعيشه وبأن الوجود الإنساني ليس عادلاً!. وأنا أقول يكفي أن تعيش بمثل هذا المعتقد لتكون خاسراً وبائساً وحزيناً حتى وإن كنت صاحب الشركة نفسه!.

ولهذا تجد القناعة لدى المؤمن تعني «الزهد» في الاستكثار لأن هذه ليست هي نهاية القصة « قصة الانسان »، وليس هذا هو أجمل ما يمكن الحصول عليه بينما القناعة في فهم الكافر هي «القبول» لأن هذا ما تمليه حتمية الواقع وقد يكون هذا هو أجمل ما يمكن الحصول عليه. وهؤلاء تحديداً هم من وصفهم الله عز وجل بأنهم ﴿**الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ**﴾ [سورة الأنعام:٢٠]. خسروا أنفسهم لأنها لم تعد لهم!. حين تهلك نصف عمرك بخدمة أعمار الآخرين ممن تحكموا بمسار حياتك منذ مولدك ثم تمضي النصف الآخر في الاستمتاع بخياراتهم البخيلة من لذة الوجود وتصوره والشعور به فلا شك أنك خاسر ولكنك لا تعلم!. هو شيء يشبه معاقرة الخمر لمن فشل مشروعه الصغير فهو سعيد في سكرته خارج سياق قصته الحقيقية، وحين وصف الله حياة الكافرين ﴿ **لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي**

سَكۡرَتِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ﴾ [الحجر:٧٢]. فقد كان يعلم ما يقول وهو يراهم سعداء خارج سياق «قصة الإنسان» في سياقاتهم الوجودية القصيرة المشوهة والمبتورة يسعون بين ذل العبودية الواقعية وحرية الممكنات المتاحة وذروة ما يمكنهم الفخر به في سيرهم الذاتية أن أحدهم كان أكثر تفانياً واجتهاداً في اهلاك سنوات عمره على خط انتاج الإنسان المهارس!.

لو تلاحظ الأساليب التي يستخدمونها في التطوير الإداري والإنتاج وكيف يقنعون «الأجير» بأنه يقوم بعمل عظيم وأن نجاح الكيان التجاري الذي يعمل به يعد عملاً خارقاً وبطولياً وكيف يلقنون الموظفين مفاهيم الولاء للكيان وأن قيمتهم الحياتية الحقيقية تنبع من نجاحهم في عملهم وأن جودة ذواتهم في الحياة هي ذاتها جودة أداؤهم في العمل وأن السير الذاتية العظيمة مهما عظمت لن تخرج عن إطار الطالب الناجح ثم الموظف المثالي ثم التقاعد المريح. حين ترى كل ذلك ستدرك مقدار التضليل الكوني الذي يعيشه الإنسان غير المؤمن وكمية الاستعباد الناعم الذي يمارس عليه ليختزل وجوده الكبير ومعانيه العظيمة واستقلاليته الفطرية ودوره الرسالي الكوني الممتد في عمق التاريخ في مجرد غاية حقيرة لا تهدف إلا لإشباع صاحب رأس المال!

منذ أن سقط النموذج الإلهي لتصور الكون حين كان البشر فعلاً يولدون أحراراً وهذا العالم كالشرنقة يغزل حوله خيوط التضليل

والعزلة عن فضاء الحرية العظمى!. حرية أن تكون إنساناً في «قصة الإنسان» حيث كل الزمن هو عمرك وكل التاريخ سيرتك وكل البشرية أهلك وكل الأرض موطنك والله وحده ربك!. وقد أشار الله سبحانه إلى ذلك بوضوح بعد أن ذكر قصة نوح وإبراهيم وإسماعيل وذا الكفل وسليمان ويونس وأيوب وموسى وعيسى ثم قال بعدها ﴿**إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ**﴾ [سورة الأنبياء:٢٩] حرية الخالدين الذين صلاتهم ونسكهم ومحياهم ومماتهم لله رب العالمين، يمرون الحياة سراعاً غرباء عابري سبيل!

حاول الفلاسفة قدر ما يستطيعون منذ سقراط وأفلاطون وأرسطو وكونفوشيوس وحتى كانت وهيجل وروسو وتولستوي انتشال التردي الروحي بمجتمعاتهم والنهوض بالإنسان إلى مستويات تليق به ككائن فوقي. أن يقنعوا الانسان بالتأمل بدلاً من الركض في الجحيم الذي لن ينتهي وقد أصاب من أصاب وأخطأ من أخطأ منهم ثم تحطمت عظامهم تحت الآلة الرأسمالية التي أعلنت «موت المعنى» وانتصار المادي حيث يولد البشر أحراراً كما تنص معاهدات هيئة الأمم المتحدة ولكنهم قد يبقون رهائن في المستشفى لأن آباءهم لم يدفعوا تكاليف عملية الولادة أو لأن الأب والأم هربا من «طفلهم البيولوجي» وتركاه رهينة في ملجأ لأطفال الرأسمالية حيث يولد البشر على هيئة خطأ مصنعي في الواقيات الجنسية!.

لا شيء غير اللّه!

متى ستحتاج فكرة الإله في مثل هذه الحضارة القائمة اليوم؟!. أغلب المشاكل الواقعية التي قد تواجهها في حياتك ستجد لها حلولاً علمية سواء في الصحة أو التجارة أو حتى في أساليب العيش والسكن والتنقل والخدمات. وكل أوقات فراغك مشغولة بشتى أنواع الترفيه والمتعة التي لن يكفي عمرك لتجربتها كلها، وكل أوقاتك الجادة العملية مشغولة بضخ روح العمل وحبه وتقديسه وجعله معيار نجاحك الحقيقي الوحيد!. إن كانت الحضارة القائمة بشكلها النهائي اليوم هي من نتاج التجربة العلمية والمجهود البشري فمن المنطقي جداً أن يرى الإنسان المختطف في هذا السياق الحضاري بأن فكرة الإله باتت فكرة طفيلية تحاول فرض نفسها على الحياة والحضارة مع أنه لا حاجة للإنسان بها الان بل لا يراها ساهمت أبداً في بناء كل ما هو قائم حوله!. لأجل كل ما سبق نجد الديانة المسيحية تنكمش وتتحول إلى مجرد كائن وديع يدعو للسلام والتسامح مفرغ من المعتقدات والأحكام المسبقة على المجتمع ومكوناته لأن هذا ما سيفعله أي عضو زائد لا قيمة له حين يحضر اجتماعاً مهماً لشركة ما فلن يملك إلا توزيع الابتسامات على الحاضرين فهو بلا دور حقيقي وعليه أن يبتسم كثيراً لكيلا يبدو أبلهاً ثقيل الحضور أو ربما مطروداً غير مأسوف عليه!.

الالحاد ليس مشكلة مع الله وحده كما يشاع ذلك بل هي مشكلة للإنسان مع نفسه فالله ليس بحاجة لمن يؤمن به لأنه يعلم من هو،

ولكن الانسان لن يعلم من هو الانسان حتى يؤمن بالله فالإيمان حق للإنسان ليكتمل بناؤه ككائن فوقي جدير بتجربة الحياة التي جاء لأجلها لهذه الأرض. كمال الانسان في الدنيا كمخلوق هو بكونه مؤمناً بالله حتى وإن كان فاسقاً عاصياً، فلما مدح الله نفسه في سورة الرحمن بأنه ﴿**خَلَقَ الْإِنسَانَ**﴾ كان معلوماً لكل عاقل بأن الله لا يمتدح ذاته بخلق كائن لا يؤمن به ولهذا فكل إنسان يخلق مؤمناً لأن كل انسان داخل في قوله «خلق الانسان» وفي قوله ﴿**فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ**﴾[الروم:٣٠]، وهذا ما جاء في قول النبي ﷺ « ما من مولود إلا ويولَد على الفطرة فأبواه يهودانه أو يمجسانه أو ينصرانه» رواه البخاري. وهو ذاته العهد الأول الذي أخذه الله على بني البشر كلهم قبل قدومهم للحياة حين قال تعالى :﴿ **وإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا** ﴾ [الأعراف:١٧٢]، وكما كان الايمان هو العهد الأول الذي أخذ على الانسان فهو الحق الأول الذي يجب أن يأخذه الانسان في هذه الحياة ولأجل هذا بعث الله الرسل ومات الشهداء!.

لم يكن تفشي الالحاد في العصر الرأسمالي نتيجة لعمق فكرة الالحاد وازدياد المؤشرات والأدلة على صحة فكرة «موت الإله» التي ابتكرها نيتشه!. الالحاد الرأسمالي نتيجة طبيعية لنسيان السياق العام لسيرة الإنسانية ككل واحد وتجربة واحدة وإلا فهواجس

الإله الملحة قديماً على عقول البشر حتى بحثوا عنه في الشجر والحجر والشمس مازالت موجودة إلى الان على المستوى الشخصي ولكنها مطمورة تحت كومة كبيرة من الذهول الحضاري المستحوذ على كل الحواس بشكل دائم ومستمر ومتجدد كل مرة!. الالحاد نتيجة طبيعية لاضمحلال الانسان المتأمل ومشارفته على الانقراض والتفتت الليبرالي وظهور الانسان التطبيقي الممارس الهارب بين وهلات الدهشة والمتعة من قيمه العليا ومن الشعور بالله وبالمعاني الفاضلة في روحه!. الهارب من تبعات الوعي الشمولي والتساؤل والخيال والتضاد بداخله ثم يواري سوءة فشل هروبه بروايات هاري بوتر في عالم الكائنات السحرية الخرافية ليباع عشرة ملايين نسخة منها بعد يوم واحد على صدورها كأكثر الكتب توزيعاً على مر التاريخ!.

حين قال عليه الصلاة والسلام في الصحيحين: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن «، فقد كان يتحدث عن هذه الحالة تحديداً حين يتحول الانسان في لحظة ما إلى « كائن ممارس» فقط، ليس للمعتقد أو الفكرة مكان في لحظته التي يعيشها وقد استحوذت عليه كلياً لذة ممارسة الحواس على الأشياء بشكل مباشر وهي ذاتها «وجودية سارتر» ولكن في شكلها العملي التطبيقي، لست بحاجة للتفكير في الإله إن كنت تستطيع ممارسة اللذة والحياة بدونه، عش كأن لم يعش أحد قبلك ولن يعيش أحد بعدك!.

في قصة لأم بريطانية كان لها ثلاثة أطفال مصابين بالتوحد وفي صبيحة يوم جميل قامت بقتلهم جميعاً فسألوها في المحكمة عن سبب فعلتها تلك فقالت: تلك هي الطريقة الوحيدة لإنقاذهم من هذا الجحيم!. ننشغل كثيراً عن الله وتأمل وجوده في حياتنا، تسرقنا الممارسة وتذهب بنا بعيداً لنتحول إلى طيور مهاجرة فوق المحيط إن توقفت عن الطيران سقطت فليس هناك خيار آخر سوى التحليق باستمرار ونسيان من يتساقطون منا ونحن نمني أنفسنا بالوصول في هجرة لن تنتهي إلى جزيرة من السعادة الصلبة التي لن تلوح في الأفق ولن يصل اليها أحد!.

لقد قرنا مواجهة الحياة على مسئوليتنا الخاصة بعيداً عن الله وقد طال علينا الأمد فقست قلوبنا!. نذكر الله حين ينسانا الجميع ونفكر في الله حين لا يفكر فينا أحد ونسأل الله فقط حين لا نجد الأجوبة ولم تعد أكاذيبنا تقنعنا بما يكفي لتجاوز الألم، ونتأمل في عدالة الله حين نعجز عن ظلم الآخرين وفي لحظة لم تكن بالحسبان نجد أننا تعطلنا عن ممارسة الحياة لتزول «سكرة الإنسان التطبيقي الممارس» ويبدو الكون متهرئاً وومزقاً وأسوداً!. سيتذكر المؤمن في هذه اللحظة قول عمر بن الخطاب في وصفه للإسلام بأنه نقلنا من ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة، وسيترائى الكون في عينيه على هيئة ميزان ذي كفتين فما نقص من كفة الدنيا سيجده في كفة الآخرة ولا يظلم ربك أحدا!. وفي ذات اللحظة سيبحث غير المؤمن بين

قرود داروين من يشرح له كل هذه المهزلة حوله ولن يجد سوى باب الموت الذي يقبع خلفه المجهول الكبير فيقتحمه فلربما كان الحل في ذلك المجهول ولربما كانت تلك هي الطريقة الوحيدة لإنقاذ نفسه من هذا الجحيم!.

إن كان الله ليس موجوداً وكانت الطبيعة التي لا تؤمن الا بنظرية الصراع العشوائية هي التي صنعت كل هذا فمن أين جاءت فكرة العدالة في النفس البشرية؟. إن كان الإنسان هو من ابتكر فكرة العدالة الأرقى بكثير من نظرية الانتقاء الطبيعي فلا شك أن الانسان أذكى من الطبيعة فإن كان الأمر كذلك فكيف يعجز الخالق عن الوصول إلى ما وصل إليه المخلوق من رقي؟!. وإن كانت الطبيعة هي التي غرست فينا فكرة العدالة فلماذا عجزت عن تطبيقها في الكون من حولنا؟!. الطبيعة التي استطاعت منحنا الحياة التي هي أرقى وأعظم من العدالة بكثير لا شك أنها تستطيع منحنا العدالة ولكن يبدو أنها طبيعة شيطانية ملعونة لا يعنيها كثيراً عدد القتلى والجوعى والمرضى ممن منحتهم حق المعاناة البلهاء والألم الرخيص!.

لم تكن الأسئلة الوجودية الكبرى غائبة عن عقول الصحابة، كأصل نشأة الكون والغاية منه! كان ذلك السؤال الكبير الذي يدور في عقول الفلاسفة على مر العصور موجوداً في مخيلتهم فقدم وفد من بني تميم إلى النبي ﷺ يضربون أكباد الإبل ويقطعون المفازات

ليسألوه عن نشوء الكون!!. جاء في صحيح البخاري: عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ، قَالَ : كُنْتُ جَالِسًا عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَنَاقَتِي مَعْقُولَةٌ بِالْبَابِ إِذْ دَخَلَ عَلَيْهِ نَفَرٌ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ ، فَقَالُوا : يَا رَسُولَ اللهِ جِئْنَاكَ لِنَتَفَقَّهَ فِي الدِّينِ وَنَسْأَلَكَ عَنْ أَوَّلِ هَذَا الأَمْرِ، مَا كَانَ ؟ قَالَ ﷺ : «كَانَ اللهُ وَلَيْسَ شَيْءٌ غَيْرَهُ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ ، ثُمَّ كَتَبَ فِي الذِّكْرِ كُلَّ شَيْءٍ ، ثُمَّ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ».

هذه هي النقطة الأولى في لوحة التصور الشمولي للكون وكل من يبدأ من غير هذا المكان لن يصل إلى التصور الحقيقي وعليها سيبنى كل تصور الأشياء، وحولها ستدور كل المعاني!. يشبه هذا الحديث في العقيدة نقطة فيثاغورس في الرياضيات حين وضع نقطة ثم عرفها ثم وضع بجوارها عدة نقاط فأصبحت مستقيما وهكذا بدأ منها تعريف المستقيم والمربع والمستطيل وصنع منها معايير الأطوال ومعادلات المساحات والأحجام ولو حذفت نقطة فيثاغورس من تاريخ البشرية لسقطت حضارة العلوم التجريبية برمتها!.

أسماك الزينة

تدور اسماك الزينة في صندوقها الزجاجي، تأكل وتتزاوج وتتحرك وتلعب وربما تقتتل فيما بينها وتفعل ظاهراً كل الأشياء التي تفعلها اسماك البحار والمحيطات! الأسماك بالطبع تتساءل لماذا عليها أن ترى هذه الوجوه البغيضة لأصحاب المنزل كل يوم؟!، هذه الكائنات التي لا تشبهها ولا تحب البقاء في الماء وليس لها وقت محدد في النوم والاستيقاظ ولا تجيد التفاهم معها!. وعلى النطاق العضوي البيولوجي سيكون لدى هذه الأسماك خصائص جسمانية معينة ورثتها من سلالتها التي نشأت في البحار كانت تمارسها للحصول على الطعام والهروب من الأعداء وربما الهجرة والسباحة طويلاً من مكان إلى مكان كتغير درجة حرارة جسمها أو لونه أو افراز بعض الروائح. هذه الخصائص مازالت موجودة فيها ولكنها لا تستطيع ممارستها وربما حدث لها خلل عضوي بداخلها واصيبت بأمراض كثيرة لكنها لا تزال على قيد الحياة ولا يزال الكائن البغيض صاحب المنزل يتمتع برؤيتها وهي تدور من خلف الزجاج في منزله وتؤدي الدور الذي جلبها وأنفق عليها من أجله!.

كلنا قد نكون مجرد أسماك زينة اختطفت من السياق الصحيح لسيرتها الأصلية وحبست في إطار معين لأجل أهداف معينة!. قد نمارس ما تمارسه سلالتنا الأصلية في كثير من مظاهر حياتنا ولكننا بلا شك سنواجه مشكلات كثيرة تتعلق بخصائصنا التي قرر من وضعنا في ذلك الإطار أن لا يهتم لها!. لا شك أن الأسماك معذورة

في استسلامها لما هي عليه من حال ولكن الإنسان بقدراته الفريدة في التأمل والاستبصار والبحث ومقارنة الأشياء وتميزه بكونه «كائن متعلم» يتصور المستقبل ويؤرخ للماضي فهو غير معذور فيما يمارسه من بلاهة الاستسلام للاختطاف الحضاري والأدلجة المادية لحياته وللكون من حوله!.

لهذا حين أراد الله سبحانه أن يذكر الإنسان بإنسانيته وفوقيته الناقدة للأشياء ليخرج من حالة الاختطاف الجاهلي الذي كان يمارس عليه أمره بالتأمل!، فبدلاً من التحاكم إلى ما يقوله كفار قريش الذين حبسوكم في إطار اللات والعزى وما تمليه تلك الآلهة من تصور يخدم سادة قريش على حساب أعماركم لماذا لا تتأملون بعيداً عنهم؟!. اذهبوا بعيداً فرادى خارج المكان والزمان الذي يحاصركم وتأملوا!، فقال لهم ﴿**قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ**﴾ [سبأ:٤٦].

لماذا يشعر الإنسان حين يقترب من الموت أو يصيبه الهلع بأن هناك شيء فوقي عظيم اسمه الإله ينبغي أن يساعده مع أن صندوق الزينة الذي يعيش فيه مكتوب عليه «لا إله والحياة مادة» كما في الشيوعية أو «كل شيء قد يكون إلهً والحياة مادة» كما في الليبرالية الرأسمالية؟!. لماذا على الجندي الذي يقف حارساً على أركان صندوق الزينة أن يقسم على الوفاء والولاء مع أن الحياة داخل الصندوق قائمة على الليبرالية والحرية المطلقة، حيث يحق

لكل أحد أن يخون المبادئ الاجتماعية وأن يغدر بالأجيال السابقة ويهدم ما بنته عبر قرون طويلة!. لماذا نشعر بالحرج حين نخالف الأخلاق السامية مع أنه قد لا يعلم أحد بذلك سوى أنفسنا طالما أن الغاية تبرر الوسيلة؟!. لماذا نشفق على الآخرين من حولنا مع أن الشفقة تعتبر ضعفاً في الصندوق الذي تدور لأشياء بداخله حول محور البقاء للأقوى والانتقاء الطبيعي؟!. لماذا يتزوج الناس داخل الصندوق ولماذا ينجبون إن كانوا لا يعلمون من أين جاءوا قبل ولادتهم ولا أين سيذهبون بعد موتهم؟!. وأي مبرر سخيف وأحمق يجيز لهم ذلك؟!. لماذا نبدأ كل الأشياء، كل الأقوال، كل الأفعال، وكل الآمال إن كانت كل الأشياء ستنتهي لا محالة، وإن كانت الحياة مجرد احتضار طويل بين موتين؟!.

لن تجد جواباً لما مضى سوى أن هذه الكائنات المختطفة في صناديق الزينة المختلفة ما زالت تتمتع بخواصها التي ورثتها من سلالتها الأصلية حين كانت تعيش في بحر «قصة الإنسان». ذلك الكائن الذي خلقه الله وأودع فيه فطرته وأخذ عليه العهد بالإيمان وعلمه الأسماء كلها فعاش يوماً تفسير كل ذلك، ومنحه الله أدوات المحافظة على ما وهبه ولكنه مختطف من سياقه الحقيقي في سياقات حضارية مشوهة توظف قدراتها في إقناعه بنسيان ماهيته والانغماس في وجودية الممارسة والتطبيق وغيبوبة اللذة والدهشة المتجددة من حوله!.

وجد علماء البيئة والنباتات بأن غياب بعض الحشرات عن الحقول الزراعية يسبب لها فساداً كبيراً مما يؤدي إلى تدهور الإنتاجية فيها وكمية المحاصيل!. قد يكون منظر الحشرات مقززاً ويثير فكرة أنها ضارة مطلقاً مع أن لها مهاماً طبيعية تقوم بها لتحقق التكافل البيئي الدقيق!. وكذلك لو أراد أحدهم تربية نمر في منزله فسيقوم بتربيته صغيراً قبل أن يكبر في الغابة ويرث عن سلالته الأصلية خصاله الحياتية ودوره الحقيقي ككائن حر فيتحول إلى كائن مستأنس بينما نمور الغابة تعيش وضعها الطبيعي ككائنات متوحشة مفترسة!. نحن كبشر سنرى بأن تحول النمر إلى صديق للإنسان تطور في حياته إلى الأفضل مع أن الحقيقة قد تكون غير ذلك. قد تخسر الغابة كثيراً لو أن كل نمورها تحولت إلى كائنات مستأنسة تنتظر الطعام ولا تبحث عنه، وتأكل الحيوان المقتول لكنها لا تقتله، تماماً كما تدهور محصول الحقول حين غابت الحشرات!.

ولو تأملت لوجدت جميع الحيوانات تمارس دورها في الكون بشكل منضبط ومستمر ومستقر على مر العصور باستثناء الإنسان فهو عنصر التمرد والفساد وعدم الانضباط الوحيد على هذا الكوكب!. ولو تأملت أكثر وأنت مؤمن بأن الكون بكل تفاصيله مخلوق وأن خالقه أودع في كل مخلوق ماهيته التي سيعيش بها مصداقاً لقوله تعالى ﴿**الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ * وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ***﴾ [الأعلى:٢-٣]. لعلمت بأن الدور الحقيقي للإنسان هو الدور الذي

كان موكلاً اليه لحظة وجوده الأولى كعنصر من عناصر الحياة على الأرض قبل مضيه بعيداً في تمرده واضطرابه الوجودي!. ذلك الدور تحديداً هو الذي سيحقق تكامل حبكة الحياة بحيث يؤدي كل كائن دوره الذي ألهمه الله إياه على المستوى البيئي والغائي والوجودي!.

هل يبدو هذا الكلام غريباً؟!. أن تتغير البيئة بسبب تغير طبيعة دور الإنسان على الأرض ككائن حي مثله مثل الحشرات والنمور؟!. منطقياً ليس هذا بالأمر الغريب ولا علمياً، أما دينياً فقد نص على ذلك الله في كتابه حين قال ﴿**ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ**﴾ [الروم:٤١]، وقال عليه الصلاة والسلام في الحديث المتفق عليه حين رأى جنازة ميت « مستريح ومستراح منه!، العبد المؤمن يستريح من نصب الدنيا وأذاها إلى رحمة الله، والعبد الفاجر يستريح منه العباد والبلاد والشجر والدواب»!. إن كان هذا على مستوى لتغير المعنوي والغائي في الانسان فما بالك بالتغير على المستوى العضوي الطبيعي حين تشرع مجتمعات البشر تحول الجنس وزواج الذكور بالذكور والاناث بالإناث؟. هذا التغير البشع الفادح لو تم تشريعه في عالم القرود والكلاب بمثل ما هو مشرع في عالم البشر لأصيبت الطبيعة والبيئة بكارثة أكبر من كارثة انقراض الديناصور وقنبلة هيروشيما!.

الكمال الكوني السابق

تخيل جزيرة ليس فيها إلا رجلاً وزوجته، كانا قد حضرا للجزيرة للبحث عن كنز دفين فتحطمت سفينتهما وبقيا يبحثان فيها عن الكنز!. كانا طوال الوقت يفكران ويبحثان عن الكنز ويكتفيان مما في الجزيرة بمجرد الطعام والشراب وظل شجرة. وفجأة اكتشفا رجلاً آخر معه زوجته أيضا يعيشان على نفس الجزيرة لنفس السبب!. منذ تلك اللحظة صار كل واحد من الرجلين يراقب الآخر، فإن رأى معه عصاً كبيرة ذهب الآخر وصنع مثله عصاً كبيرة، وإن رأى معه حبلاً صنع مثله حبلاً!. كل واحد يخشى أن الآخر يخطط للانقضاض عليه لحظة اكتشاف الكنز!. في يوم من الأيام رأى أحدهما الآخر يقطع الكثير من الأشجار فظن أنه وجد الكنز ويريد الهروب به بعد أن يصنع قارباً صغيراً فذهب اليه وتشاجر معه!. انتقل الأمر من صراع المحاكاة والتسلح إلى الصراع على مصادر الطبيعة في الجزيرة. تكاثرت العائلتان ومرت الأجيال وهم في حالة من المغالبة والعداء وشيئاً فشيئاً تكونت قرية من الناس مات منها أربعة أو خمسة أجيال وبقي الجيل الأخير لا يدري شيئاً عن الكنز ولا يعلم أنه يعيش على مجرد جزيرة صغيرة بينما اليابسة الكبرى التي قدم منها اجداده قد لا تبعد عنه بالقارب الا مسيرة شهر!.

بمثل هذه الطريقة تتكون المجتمعات والأمم وتندثر الغايات الأصلية وينقطع السياق الوجودي وتفنى المعرفة الأصلية. وقد يضيع جزء كبير من الواقع الحقيقي والكون الحقيقي من تصور

البشر كما فنت حقيقة اليابسة الأم من عقول الجيل الأخير على الجزيرة وحلت محلها قناعة أن هذه الجزيرة الصغيرة هي الأرض كلها!. لهذا تجد القران يشير إلى مثل هذه المعاني التي يصعب على العقل اللحظي المنهمك في سياق حضاري معين ملاحظتها فتجده يصف حالة «فناء المعرفة الأصلية» نتيجة التعاقب الزمني بقوله «فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم»، فخرجوا من «قصة الانسان» إلى قصة الكدح الحياتي والمحاكاة البلهاء والدهشة المذهلة!.

يتصور الغرب الحضارة على أنها هي الغاية ويرى بأن كمال الحضارة الإنسانية شيء مستقبلي متعلق بتطور العلم وهي نظرة منحرفة حالمة. فقد انتقدها فلاسفة الغرب وكتابهم أنفسهم وكان أبرزهم شوبنهاور حين كتب نظريته «عدم جدوى الوجود» داعياً البشر للانقراض الطوعي والخروج من التجربة الكونية رحمة بالأجيال القادمة! فالمجتمع البشري لدى الغرب يتطور تبعاً لنظرية النشوء والارتقاء على المستوى الفكري والبيولوجي!. فكلما نشأ مذهب جديد يمنحونه حرية الاختلاف تحت المظلة الليبرالية على اعتبار أن هذا المذهب الجديد هو «ابن الطبيعة» مثله مثل أي سلالة حيوانية انتجتها سلسلة النشوء والارتقاء. ثم يتركونه يمارس الصراع الاجتماعي وقد يجد من يدعمه اعلامياً ومالياً فينتشر شيئاً فشيئاً حتى يصبح واقعاً على الأرض، فيسنون قانوناً يعترف به ليكون حاضنة له يعيش فيها ويتكاثر كأي مكون طبيعي من مكونات المجتمع!.

كان هذا واضحاً في نشوء حقوق اللواطيين والسحاقيات. فقد بدأ الأمر شذوذاً اجتماعياً يحظى بحرية الممارسة ثم دعمه الاعلام الرأسمالي لأن الرأسمالية قائمة على كثرة التنوع في العرض والطلب وهي حين تدخل سوقاً فيه نوع واحد من العائلات «ذكر وأنثى» ستكون فرصها فيه أقل منها في سوق آخر فيه ثلاثة أنواع من العائلات «ذكر وأنثى، ذكر وذكر، أنثى وأنثى»!. تطور الأمر وتحول الشذوذ إلى حق طبيعي في تقرير الجنس فسمحوا رسمياً بزواج الشواذ من اللواطيين والسحاقيات!. وحتى بداية التسعينات كان الشذوذ الجنسي يصنف على أنه مرض نفسي ثم حذفوه من قاموس الأمراض النفسية وأثبتوا ذلك في بنود الأمم المتحدة وتم اعتماده أممياً على أنه حق طبيعي، وهكذا!.

كيف تتوقع الوصول إلى «حالة الكمال الحضاري» المزعومة في مجتمع يؤمن بحق الفوضى في الوجود ويرى بأن تغيرات المجتمع العشوائية وربما الجنونية المريضة قد تتطور لتكون حقاً محترماً ؟!. عن أي كمال حضاري تتحدث في مجتمع يمنح فيه الدولار الجميع حق الهروب من الجميع ليمعن في تفتيت النسيج البشري ويحرر فيه رؤوس البشر التي سيستثمر فيها ليجعل من كل شيء سلعة!. عن أي كمال حضاري تتحدث في مجتمع يشرع للعاهرات نقابة عمالية لكي يجني حق الحكومة من ضريبة دخل فروجهن المتحررة؟!. عن أي كمال حضاري تتحدث وأكثر الدول تقدما تقصف البشر في مشارق الأرض ومغاربها بالقنابل المشعة ليولد الآلاف من الأطفال

المشوهين كل عام وسيولدون كذلك على مدى أجيال قادمة بلا أعين وبلا أيدي وربما بلا أرواح؟!. وعن أي إنسان تتحدث والإنسان لم يعد انساناً؟!. ها هم الآن مثلا يجرون التجارب العلمية المدعومة من مستشفيات الرأسمالية لكي يقوموا بزراعة بويضة بشرية مخصبة تبرع بها رجل وامرأة عابري سبيل لتغرس في الأمعاء الغليظة لرجل شاذ في عائلة مثلية؟!. إلى أين سينتهي كل ذلك؟.

هذا التطور الأعمى لا حدود له. وهو مثال واحد من كثير من الأمثلة التي باتت تهدد الإنسان عالمياً في الطبقة الأصلية من وجوده وهي طبقة الفطرة الأصلية والهيئة الأصلية للجسد! حين كان الناقد -قبل عشر سنوات فقط- يتحدث عن الشذوذ لدى الغرب، كان المنهزمون من عشاق النموذج الغربي يقولون ولماذا لا ترون إلا هذه الآفة الصغيرة؟!!. حاول الناقد كثيراً أن يشرح لهم بأن المشكلة ليست في الآفة الصغيرة بحد ذاتها ولكن في خط الإنتاج الذي نصبته حضارة التطور الأعمى لتعيد خلق العالم من جديد كلما كسدت تجارتها!، عن المنهجية الدائمة في توليدها ورعايتها للفوضى المدمرة الجاحدة لما سبق من إرث بشري والتبشير بها وخطر ذلك على البشرية كلها. وها هي الآفة الصغيرة اليوم تتحول إلى بند من بنود الأمم المتحدة ويتحدث عنها رؤساء الدول العظمى في زياراتهم الخارجية كما يتحدثون عن حقوق الأديان ومعاهدات التسلح النووي!.

من يتصور بأن الله خلق الانسان ليتم عمارة الأرض لتصبح كوكباً أفضل مما هي عليه فيطورها ويبني ما نقص منها لأجل الوصول إلى «حالة كمال حضاري» لم تكن موجودة سابقاً فهو لا يعرف قصة الإنسان وربما لا يعرف الله حق معرفته!. ليست البشرية بحاجة لكل هذا الهراء المسمى الحضارة كغاية أصلية في حياتها ولكنها نتيجة حتمية لتطور هاجس المحاكاة والمغالبة بين الشعوب والأمم. كما أنها ظاهرة من ظواهر نعمة الله على الإنسان حين منحه العقل والتأمل ليكتسب ما ينفعه ويدفع عنه ما يؤذيه، وسيلة من وسائل العيش وليست غاية من غاياته!. «إنسان الله» الذي لو بقي على عهد الايمان والطاعة لكفاه من النعيم ما خلقه الله له من السماء والأرض والخيل والبغال والحمير والبحر والحلية التي يلبسونها منه ولباساً يواري سوءاتهم وريشاً وبيتاً من أكنان الجبال!. في سلام وأمن وإيمان ورزق لا ينقطع، «ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض»، ولكن أهل القرى لم يؤمنوا ولم يتقوا فابتلاهم الله بالخلود إلى الأرض ونسيان السماء وفتح عليهم أبواب طغيان المغالبة والمحاكاة والاستحواذ يتنافسون فيه، «ولو شاء الله ما اقتتل الذين من بعدهم من بعد ما جاءتهم البينات ولكن اختلفوا فمنهم من آمن ومنهم من كفر ولو شاء الله ما اقتتلوا ولكن الله يفعل ما يريد»، فما زلنا في ذلك حتى اليوم، طاعةً لمشيئة الله في ابتلاء الانسان ووفاءً للأمانة التي حملناها وأشفقت أن تحملها السماوات والأرض والجبال!.

الإنسان الواحد

خلق الله آدم عليه السلام ونفخ فيه الروح، تلك اللحظة العظيمة الفارهة، كثيفة النعيم والرحمة وإذا به ينظر مندهشاً بين يدي ربه بهذا الوعي والوجود فقال له ربه كما في صحيح مسلم وهو يخطو أولى خطواته في ملكوت الله : «اذهب فسلم على أولئك النفر -من الملائكة- فاستمع ما يجيبونك فإنها تحيتك وتحية ذريتك. فذهب فقال: السلام عليكم فقالوا: السلام عليك ورحمة الله». بكل هذه الرحمة وهذا الهدوء والذوق والجمال بدأت قصة الإنسان الأول الذي ما لبث أن علمه ربه الأسماء كلها وقربه وأكرمه وأسجد له ملائكته ثم خلق له من ضلعه حبيبته حواء، لتؤنسه في وحشة تفرده فلا شيء يشبهه في الجنة إلا هي، ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً**﴾ [النساء:١].

ما نشعر به اليوم من حب وقلق وخوف وجوع وفقد وغيرها من خصال البشر كان يشعر بها آدم عليه السلام حين خرج من الجنة!. نحن نفس الكائن ونفس التجربة لكننا صرنا شعوباً وقبائل وتوزعنا في مخيمات كبيرة للاجئين يسمونها الأمم والدول!. أنظر في عيني طفلين من قارتين مختلفتين وديانتين مختلفتين سترى فيهما نفس الإنسان الواحد المولود على الفطرة لكنه في صورتين!. وانظر إلى الأطفال يقتلون في الحروب ويتشردون على يد «الإنسان المشوّه» لتدرك بأن هذا ليس هو «انسان الله» وإنما انسان الشيطان الهارب

من سياق قصته الطويلة!. ستدرك أن كل هذه البراءة وهذا الجمال ما جاء صدفة ولن تذهب دماؤه هدراً فالذي أبدع بخلق هذه البراءة لن يعجزه أن يخلق انتقاماً لها يليق بها وبقدرته!. فهو المنشأ الواحد إذن والمعاد الواحد ولن يكون ما بينهما إلا التجربة الواحدة، «وما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة».

كان آدم عليه السلام في الجنة وقد نهاه ربه عن الشجرة فأكل منها لأن الإنسان بفطرته أكثر شيء جدلا، يحب أن يتعلم ويجرب ويبحث ومع أنها كانت معصية لله إلا أن الله سبحانه لم يشأ أن يمنع آدم عن شيء يحبه فتاب عليه وأنزله إلى الأرض وكأنه يقول له كن ما تريد أن تكونه يا آدم ثم تعود إلي فأحاسبك!. لم يكن نزول آدم للأرض عقوبة محضة بل هو نوع من الرحمة بفطرته الجدلية التائقة للبحث والتجربة والحياة وكان هذا الهاجس مرافقاً لذرية آدم عليه السلام حتى بعد عودتهم من الأرض إلى الجنة حيث قال ﷺ كما في صحيح البخاري متحدثاً لأصحابه : «إن رجلاً من أهل الجنة استأذن ربه في الزرع، فقال له : ألست فيما شئت؟ قال: بلى، لكني أحب أن أزرع، فبذر فبادر نباته واستواؤه واستحصاده، فكان أمثال الجبال، فيقول الله: دونك يا ابن آدم فإنه لا يشبعك شيء». هل رأيت أكرم من هذا؟!. أن يستجيب لطلبك من لا يحتاجك لأنك تريد فعل شيء لا تحتاجه سوى أنه يشبع شيئاً في نفسك!.

الحياة ليست صعبة وعبورها ليس صعباً ومن ستذهب إليه بعد رحيلك منها أرحم بك ممن تركتهم فيها!. فالحضارة التي خلقت لأجلها هي شيء ماضوي ستجده خلفك، أما حضارة المادة فهي حضارة الأدوات والوسائل التي محورها المغالبة، والمحاكاة، ولأنانية الفردية. محاور يلعن بعضها بعضاً وقودها عمرك ومعاناتك وماهيتك الوجودية!. الحياة أبسط مما تراه فكل ما هو مطلوب منك لتحقق غاية وجودك في الحياة هو ما كان مطلوباً من «آدم الأول» ببساطته ونقائه وسهولة أفكاره، أما ما تراه حولك من الآفاق المظلمة الصاخبة السوداء فهي ليست إلا غبار الهاربين من «قصة الإنسان» الهائمين في أودية الكدح الرخيص حيث لا شيء يفعل لله ولا شيء سيبقى لهم!.

فقد الغرب توازنه منذ أن تخلى عن التصور السماوي للكون والانسان وأطلق عنان الخيال البشري في طبقة من طبقات الوعي كان قد فشل على مر العصور في التعامل معها!. طبقة ما وراء المحسوس من الأشياء!. ما فوق الزمان والمكان وما قبل الحياة وما بعد الموت، ولماذا الغرائز والفطرة والأخلاق؟!. وكيف يفسر ما وراء الظاهر من تناقضات الأحداث في اختلاف الأقدار والأعمار والعافية والعدالة والرزق بعيداً عن «قصة الإنسان». حاول الفلاسفة كبح جماح فكرة إعادة اكتشاف الكون من جديد ابتداءً من توما الإكويني في القرن الثالث عشر وحتى كانت وهيغل في

القرن السابع عشر ولكن شرارة قوانين نيوتن في نهاية نفس القرن ثم نظرية داروين من بعدها ثم الثورة الفرنسية، قد قضت على كل شيء وجعلت «التجربة العلمية» هي القانون الواحد الجديد ليعلن نيتشه نظرية موت الإله، حيث يجب على الإنسان السوبرمان أن يتولى إدارة شؤون الكون!.

لم تتوقف عصور الظلام في أوروبا بدخولها العهد الصناعي فمنذ إعلانها موت الإله والكون من حولها يزداد استنارة بالاكتشاف والبحث العلمي بينما يزداد الإنسان ظلمة وحيرة وتفاهة من الداخل!. حتى الفلسفة في تلك الفترة من الجنون العلمي المادي كانت تجامل سطوة العلوم الطبيعية التجريبية في عز نشوة ثورتها فانخرطت تبرر الإلحاد، وتدمير الإرث السابق برمته وتحول منطلقاتها الفكرية من مثالية سامية إلى عضوية بيولوجية تتحدث عن الإنسان كحيوان طبيعي لا أكثر. فلم يكن غريباً أن يصدر هتلر في القرن العشرين قراراً بإعدام المرضى المزمنين والمسنين مبرراً ذلك بأنهم كائنات زائدة عن المجتمع وكان هناك من يفلسف له ذلك كوجهة نظر محترمة ومنطقية في عصر يقدس الأرقام والجدوى الاقتصادية فقتل منهم أكثر من مائتي الف بريء!.

واستمر الفلاسفة في فلسفة السياسة والاقتصاد يمهدون للماكنة الصناعية طريق الاستحواذ على الإنسان واخضاعه لتوجهات المادة

فانتهى الأمر إلى الشيوعية، والرأسمالية كحجري الرحى تطحنان البشر وتفتتان كل منظومة بشرية موروثة!.

لم يسبق للبشرية منذ أن خلقها الله أن قتل منها أكثر من مائة مليون قتيل في ثلاثين عاماً متتالية إلا في ذروة عهد الاستنارة وموت الإله ما بين ١٩١٤-١٩٤٥ م . كل الذين أهلكهم الله من الأمم السابقة والذين قتلهم الأنبياء وأتباعهم أو حتى الذين قتلوا بدوافع دينية مهما كانت، لا يصلون لنصف هذا العدد الذي مات لأجل لا شيء سوى أن الإنسان المادي قرر أن يكون الإله المحرك لهذا العالم!. حين قررت الثورة الفرنسية إزاحة سلطة الدين عن المجتمع بمحاكم التفتيش والاعدام كانت تبرر ذلك بأن العقائد تسبب الاختلاف والاختلاف يسبب الصراع ودمار الإنسانية، ثم وقفت الرأسمالية الليبرالية خلف العقيدة السياسية تدعمها حتى قتل مئات الملايين من البشر دفاعاً عن المال والسلطة!.

هذه النكبة الكونية التي تعرض لها الانسان السوبرمان اضطرت الحكومات اضطراراً تحت ضغط هاجس فكرة الانقراض ودمار الكوكب أن تجلس على طاولة واحدة تسميها الأمم المتحدة لتتقاسم النفوذ بسلام ولتكتب المعاهدات التي قد تحميها من حماقة الانسان السوبرمان حين يقرر السيطرة على العالم من جديد!.

لم يتغير شيء في عقلية الانسان السوبرمان غير أنه قديماً كان يطير ليلقي القنابل النووية على الأبرياء الذين لا يبايعونه على خلافة

الكوكب ثم صار الآن يصطادهم بشباكه من بعيد. شباك الاقتصاد والتفتيت والأدلجة الإعلامية ونخر المجتمعات من قواعدها ليحول فيها المؤمن بالعقل إلى قرد والكافر به إلى مخنث ثم يشرع له قانوناً يسميه حقوق المثليين!. ولن يعنيه أن يكون هو إله القرود والمخانيث طالما أنهم يخدمونه بسعادة ويقدسون المادة ويحترمون القانون ويبقون على خط الإنتاج بهدوء حتى نهايته!.

تخطفك السياقات الحضارية المشوّهة فتنسى نفسك!. تذوب في فناء جبري في بحر كبير من فوضى اللاشيء!. ترى الناس حولك كلهم يشبهونك وحين يتحدثون عن أنفسهم وكأنهم يتحدثون عنك لكنكم لا تؤمنون بالإنسان الواحد والقصة الواحدة!. فتنسى أنك أنت العالم، والعالم هو أنت!. وأن أي نجاة لا يكون فيها الاعتبار الأول لك أنت ليست سوى نجاة كاذبة مهما كانت، فنجاتك مساوية لنجاة العالم وهلاكك هو هلاكه!. هذا ما قاله الله للبشر حين قال ﴿**أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا**﴾ [المائدة:٣٢]. وحين قال ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ**﴾ [المائدة:١٠٥]. فكل نفسٍ بشرية هي في ثقلها وقيمتها عند الله مساوية لنفس آدم الأول من حيث أنها ذات مستقلة معصومة لها حق إلهي في خوض رحلة الحياة كما خاضها آدم. فالكون كله قائم على فكرة خلاصك الشخصي وكأنه لم يخلق إلا لأجلك!. والعالم لن يمنحك هذا

الخلاص فهو شيء يخصك وحدك، وهو مهمتك الأولى والأخيرة في الحياة وغايتك التي لن تساوي شيئاً دونها. ومنذ أن زاد عدد سكان الأرض عن اثنين، دخلت النفعية وحب الاستحواذ في حياة البشر فصاروا يقاتلونك على سنوات عمرك ومصيرك وخلاصك الشخصي لتعيش من أجل مصالحهم وتنسى نفسك، تارة بالقوة الباطشة وتارة بالمتعة المذهلة وتارة أخرى بغيبوبة الممارسة.

لهذا كلما زاد عدد البشر في التاريخ زاد تتابع الأنبياء لأن الفرد يذوب في المعتقد الجماعي ثم يجد أن الجماعة تسطو على خلاصه الشخصي وتجيّره للمجموع حتى وإن كان على حساب هلاك الفرد. جاء الإسلام بعد ذلك بمقومات التصور الواحد والنموذج الواحد للكون ومن فيه وكان محور الرسالة ﴿**يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ**﴾ [الانشقاق:٦]. فتجد معية الله ترافقك في خلجات نفسك وتأملاتك وتجد كلامه يحدثك تارة عن "قصة الإنسان" وتارة عن مستقبله وتارة أخرى عن الكون والسماوات والأرض والحجر والشجر والحيوان فتشعر بألفة مع أشياء الحياة من حولك وتكامل وصحبة قديمة جداً حتى تظن لو أنك تكلمت مع شجرة لفهمت ما تقول، ثم يعاتبك بلسان رحمته التي لم تعد قادراً على تجاهلها : ﴿**يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ**﴾[الإنفطار:٦].

الجيل الأول باستمرار!

بعد الحرب العالمية الثانية اكتشف الإنسان الغربي بأن إله العلم الذي عبدوه لم يكن هو الإله المنقذ بل كان شيطاناً متعطشاً للدماء والسيطرة وأنه لا يكترث على الاطلاق بالمؤمنين به!. بعثت في هذه اللحظة الحرجة فلسلفة الوجودية على يدي سارتر ليجد ليتامى الحضارة الصناعية مذهباً جديداً يعولهم!. تساءل سارتر: طالما أن البشرية عاشت قروناً طويلة قبل أن تكتشف حقيقة الأوكسجين في الهواء ومع هذا عاشوا سعداء ولم يؤثر ذلك كثيراً في حياتهم بعد أن اكتشفوه، فلماذا إذن نفكر بالموت والوجود بعده؟!!. وصرخ صرخته الهستيرية تعالوا وعيشوا كأن لم يعش أحد قبلكم ولن يعيش أحد بعدكم في لذة لا ينغصها ذكريات مصير المائة مليون قتيل الذين فقدناهم لأجل لا شيء!. لقد وجد سارتر الحل الجهنمي للإنسان الغربي المسكين المظلم من الداخل حين فقد ثقته بالحضارة والانسان السوبرمان، فبدلاً من أن يبني حضارة شيطانية ستقتله لأجل لا شيء، أرشده لأن يعيش حياة بهيمية لأجل لا شيء!.

وفي منتصف الخمسينات ومطلع الستينات كان مذهب الوجودية قد سيطر على عقول جيل ما بعد الحرب فانهارت أوروبا وأمريكا انهياراً أخلاقياً واجتماعياً ليس له مثيل حتى في العصور المظلمة!. انتشر الجنس والمخدرات وشواطئ العراة، وخرجت جماعة تسمى جماعة الهيبيين Hippies تؤمن بأن كل النظم الاجتماعية والحضارية لا قيمة لها، فلا يؤمنون بالأسرة ولا بالزواج

ولا بالحكومات ولا حتى بالتعليم ويرون ذلك عبثاً وعبودية. يخرج أحدهم بحفنة ملابس يحملها على ظهره فينضم لجماعات تجوب الأرض تأكل من القمامة والأعشاب وتنام تحت الجسور وتمارس الجنس وتتعاطى المخدرات وقد ذاع صيتها وانتشرت في الغرب حتى انضم اليها بعض العلماء ومنهم عالم النفس تيموثي ليري الذي كان يعلن بأن العقاقير والمخدرات هي المخلّص الجديد للعالم بدلاً من الأنبياء والعلم!. وقد تأثر العالم الإسلامي برمته بتلك الحقبة الإباحية ولو عدت للأفلام السينمائية العربية في فترة ١٩٦٠-١٩٧٥ ستلاحظ كمية الاسفاف في كل شيء!.

استطاع الغرب أن يحاصر الوجودية المتطرفة المارقة عن المجتمع فكان يسمح بدخول الكلاب للأسواق والمطاعم ويمنع افراد هذه الجماعة. أخذ الأمر على محمل الجد من قبل الحكومات ودخلت في برامج كبيرة لإعادة تأهيل المجتمعات واحتواء هذه الظواهر المدمرة وشيئاً فشيئاً ذابت هذه الظواهر في وجودية أكثر نعومة ينحصر ضررها على الفرد نفسه دون أن تتأثر المنظومة الإنتاجية للرأسمالية!. ومن خلال الليبرالية القائمة على التفتيت استطاع أصحاب رؤوس الأموال تفتيت المجتمع الغربي إلى أطياف كثيرة حتى بلغ كل واحد فيها مرحلة يشعر فيها بأن فكرة الحق والباطل فكرة غير صحيحة وأن كل الأشياء قد تكون جيدة وفي أشد الحالات تعصباً كان الانسان الغربي يؤمن بأنه على صواب دون أن يعلن ذلك للاخرين.

فالسلام الاجتماعي عندهم ليس ناتجاً عن حالة توافقية عاقلة وناضجة تجاه الأسئلة الوجودية والاجتماعية الكبرى ولكنه سلام التورط بروح اللامنتمي، والمراوحة بين شعور الشذوذ والأقلية المضمحلة!. فيكتفي باجترار قناعاته في زاوية منزله تاركاً المجتمع للتطور الذي تسوقه إليه المادة والاختراع ورغبات أصحاب رؤوس الأموال الذين أفقروه بالضريبة وسلبوه حق العيش في مجتمع إنساني حقيقي يرى بأنه جزء منه!. لم يعد الإنسان الغربي قادراً على الوقوف في وجه "الكل الميكانيكي المتوحش" فالآلة الرأسمالية تدور والليبرالية تفتت الإنسان ليكون وقودها. وطالما أن "المعروف والمنكر" كمفهوم اجتماعي وانساني تم القضاء عليه وقد كان هو "الإنسان الكبير" الذي يجابه "الكل الكبير" فلم يعد للإنسان من يدافع عنه!. ربما يبدو هذا الكلام غريباً ومخالفاً لما هي عليه صورة المجتمع الغربي المتطور ولكن في الحقيقة لم يسبق أن وقعت الكارثة الإنسانية بشكل جميل وجذاب كما هي عليه الحال في الغرب الآن!. الغربيون أنفسهم لاحظوا ذلك وكتبوا عنه تحت مصطلح الانسان الاقتصادي.

تستمد الرأسمالية الليبرالية استمرارها من منهجها القائم على الثوران باستمرار!. فكل جيل يولد سيجد أنه تلقائيا يعيش أفكاراً ومذاهباً لا تنتمي للجيل السابق. فالليبرالية ترعى الفوضى المتجددة وتغريها بالثوران والرأسمالية تتبنى مما تنتجه الفوضى ما

يخدم نهمتها التجارية الاستبدادية فتدعمه اعلامياً ودعائياً وهكذا تتم صناعة كل جيل. ليس بمقدور المجتمعات التي تتغير بهذه الطريقة غير الواعية أن تنتقد نفسها وتصحح مسارها فالحياة كلها ستتحول إلى مجرد "موجة موضة" عابرة تتكرر في كل جيل ثم تنتهي تلقائياً لتبدأ أخرى غيرها تلتهم ضحاياها الجدد ثم تختفي، وهكذا!. فلو تأملت الرأسمالية كتجربة واحدة لجيل واحد ستجد أنها قد فشلت منذ الجيل الأول ولكن لا أحد يلاحظ ذلك لأنها استطاعت أن توهم كل جيل جديد بأنه هو الجيل الأول فلن يكون حينها مضطراً لنقد تجربة السابقين طالما أنه تخلص منهم وتحول إلى جيل آخر جديد!!. هذا الشيء يشبه استمرار انطلاق القطار البخاري على سكة الحديد، فهو ما زال مستمراً في رحلته الواحدة لأنه كل حين من الزمن يحرق كمية معينة من الفحم!. فالرأسمالية هي القطار والليبرالية التي تفتت الوعي العام هي عامل بيت النار وكميات الفحم هم الأجيال المتتابعة!.

ما الذي يجعل فتاة في القرن الواحد والعشرين ترتدي سروالاً ممزقاً على الفخذين وتراه شيئاً عظيماً؟! مع أن ذلك السروال ارتداه الفقراء المعدمون من عمال المناجم في العهد الفيكتوري حين كان كل سكان إنجلترا -كما يقول المؤرخون- يرون بأن المرأة الشريفة لا تكشف أعضاءها!. حتى الاعتبارات المنطقية التي ظن الناس أنه يصعب التلاعب بها، استطاعت الرأسمالية اللعب بها فتجاوزت

مرحلة صناعة الأخلاق إلى صناعة البديهيات وهي الآن تلعب على أعمق من ذلك وهو صناعة الفطرة والجنوسة أو ما يسمى بالجندر!. في مثل هذا المجتمع المسيطر عليه تماماً في صندوق أسماك "الرأسمالية الليبرالية"، حيث لا عقل جمعي ولا منظومات أخلاقية ولا تسلسل تاريخي بين الأجيال ولا ثوابت من أي نوع، هل تعتقد بأنك ستجد من ينتقده؟!. كيف سينتقد فيلسوف اقتصادي مثل "أمارتيا سن" عمره خمسة وثمانون عاماً مجتمعاً يتغير كل عشر سنوات إلى مجتمع آخر؟!. ومن الذي سيهتم لكلامه إن كان الجيل الحالي كل مرة يرى بأن الجيل الذي سبقه قد انتهى لأن كل شيء قد تغير؟!.

يقول أستاذ التاريخ بجامعة سانت كاترين في كامبردج "تيم روغان" في مقال نشره بموقع Aeon العلمي في فبراير[١] ٢٠١٨ يتحدث فيه عن أبرز انتقاداته للرأسمالية :" يأتي النقد الكلاسيكي الموجه إلى الرأسمالية في شكل أساسي، وهو النقد الأخلاقي الذي يرفض كون «الإنسان الاقتصادي» الفكرة المنظمة للعلاقات الإنسانية، ويقول إننا نحتاج إلى ما هو أكثر من الأمور المادية لتحقيق الازدهار. يعير هذا النوع من النقد العلاقات الأخلاقية والروحانية اهتمامًا كبيرًا، ويرى أن الإصلاحات المادية، مثل الارتقاء بمتوسط الدخل الأساسي العالمي، لن يغير شيئًا في المجتمعات التي فيها خلل في توزيع الثروات.

أما المؤيدين للتصورات الرأسمالية عن المجتمع والحياة فيعتمدون وجهة النظر المادية، التي تدعم فكرة أن الإنسان الاقتصادي هو نقطة البداية الصحيحة للفكر الاجتماعي. فبالنسبة إليهم نحن آلات حاسبة فقيرة أحادية التفكير، ونفشل في رؤية أن مصلحتنا تتمثل في التوزيع الراشد للرخاء بين المجتمعات. ونتيجة لهذا، يظهر انعدام المساواة ونمو الأجور غير المحكوم، ومن ثَمَّ التركيز على تدارك عدم المساواة في توزيع المواد. يبدو الجدل حول النقد الأول كوسيلة للإصلاح الاقتصادي متراجعًا الآن، إذ يسيطر النقد المادي، وتندمج الأفكار في الأرقام، ويخفت صوت الحديث عن القيم غير المادية في الاقتصاد السياسي، وتتضخم النفعية بشكل كبير وقهري".

تكلم في نفس المقال عن "أمارتيا سن"، فيلسوف الاقتصاد الحاصل على جائزة نوبل، واصفاً إياه بأنه أعظم من انتقد الرأسمالية في القرن الأخير فقال :" حين سافر أمارتيا إلى كامبريدج كان الجدل المثار حينها هو نظرية الرفاهية، وتأثر الجدال بالحرب الباردة بين السوق وحريته في الدول الرأسمالية، والنماذج المعتمدة على الدولة في النظام الاقتصادي كما في الدول الاشتراكية والشيوعية. سعى اقتصاديو الرفاهية في ثلاثينيات وأربعينيات القرن العشرين إلى نزع الروابط بين الوجود المادي والأخلاقي، وأصروا على أن الدولة يمكن أن تشرِّع برامج إعادة التوزيع عن طريق اللجوء إلى

المبادئ النفعية الصارمة، دون أي اعتبار لأي قواعد أخلاقية. وقتها كان النقد المادي للرأسمالية في أوجِه، فتعاطف "أمارتيا سِن" من وجهة نظر اجتماعية ديمقراطية وعادَى السلطة، وكان رده أن تعظيم الفائدة ليس الأمر الشاغل للجميع، وأنه حين تحرك الحكومة المال بهدف تحقيق الرفاهية دون اعتبار للإنسان، فهذه وسيلة معيبة".

ثم ختم المقال مكملاً حديثه عن أمارتيا سن :" لم يكن سِن بمفرده، فقد وافقه في نظرياته «كينيث أرو»، الاقتصادي الأمريكي الحاصل على جائزة نوبل. رأى "أرو" ضرورة دمج الاقتصاد في الأُطر الأخلاقية والاجتماعية، لكن "أمارتيا" رأى كيف يمكن تحقيق ذلك، وأدرك في لحظات متقدمة من تاريخ الاقتصاد السياسي الحديث أن الفصل بين حياتنا الأخلاقية وحياتنا المادية فاق التصور، وأن النفعية في حالة من التضخم المهيب. شعر بهذا المناخ، ومن هنا طوَّر أفكارًا ومناهج تحليلية لمحاربته". انتهى كلامه.

شخصياً، لا أرى هذه المحاولات النقدية مجدية فالأمر بات محسوماً في المجتمع الغربي لصالح الرأسمالية وإن كان هناك ثمة أمل لإنقاذ الإنسان فسيكون ذلك في محيط العالم الإسلامي والعربي تحديداً. لقد تورط المجتمع الغربي فيما أسميه " افتقار الكل إلى الكل". فكل فرد في المجتمع يجد نفسه يفتقر بحتمية صارمة للكل العام الذي يعيش فيه وهذا ما يحدث الآن في ظل الرأسمالية!. شيء يشبه نظرية الحمد مقابل الأمان!. فمقابل الأمان الضروري جدا

الذي يوفره الكل الكبير لكل فرد فعليه أن يبقى حامداً على اية حال!. كذلك الحال في الرأسمالية، فمقابل الدولار الذي يمنحه "الكل الرأسمالي" فعليك أن تبقى على خط الإنتاج أو تقفز خارجه فلا حياة لك حينها ولا دولار!. ولحظة بناء مصيدة "افتقار الكل للكل" لم تكن جديدة كما تحدث "تيم روغان" بل منذ ثلاثينيات القرن العشرين حين أصرت الدول الغربية على إعادة توزيع الاقتصاد باللجوء إلى تشريعات مبنية على المبادئ النفعية الصارمة، دون أي اعتبار للقواعد الأخلاقية.

أما لو رجعنا إلى نقاد الرأسمالية القدماء الذين شهدوا لحظة ولادتها ونموها الأول فلن تجد أفضل من ورقات "البيان الشيوعي" لكارل ماركس وفريدرك انجلز وهما يصفان نشوء وتطور الرأسمالية ومستقبلها. وعلى الرغم من أن هذا البيان صدر عام ١٨٤٧م إلا أن كل ما فيه من تنبؤات حدثت بالفعل ومازالت تحدث ليبقى شاهداً على عظمة كارل ماركس المذهلة في هذا المجال. لم تكن الرأسمالية فكرة الفقراء ولم تنشأ خدمة لهم ولم يكونوا من مشرعيها يوما. فمنذ اللحظة الأولى التي خرجت فيها الرأسمالية كانت تضع باعتبارها أنها ستخدم فئة معينة من الناس، مثلها مثل أي نظام سياسي. فإن كان الحكم الوراثي يخدم ورثة العرش والحكم البابوي يخدم الكنيسة والحكم العسكري يخدم العسكر فالرأسمالية مدار قوانينها وتشريعاتها خدمة أصحاب رؤوس الأموال.

يقول ماركس في البيان الشيوعي واصفاً طبقة أصحاب رؤوس الأموال بالبرجوازية :" انتَزعت البرجوازية أخيرا، بقيام الصناعة الكبيرة والسوق العالمية، السلطة السياسية كاملة في الدولة التمثيلية العصرية. وسلطة الدولة الحديثة ليست سوى هيئة تدير المصالح المشتركة للطبقة البرجوازية بأسرها".

أما على الصعيد الإنساني، تستغرب بالفعل دقة استشراف ماركس لصورة المستقبل وكيف ستصبح المجتمعات تحت ظل الرأسمالية، فقد كتب بيانه حين كانت المرأة الأوروبية تجر ثوبها خلفها ذراعاً وترتدي تحته السروال، قبل شواطئ العراة ونجمات الأفلام الإباحية وحقوق اللواطيين والسحاقيات وقبل محطات السي إن إن وأفلام هوليوود، وحتى قبل الحرب العالمية الأولى والثانية فتجده يقول : "والبرجوازية حيث ظفرت بالسلطة دمرت كل العلاقات الإقطاعية من كل لون، التي كانت تربط الإنسان بسادته الطبيعيين، ولم تُـبق على أية رابطة بين الإنسان والإنسان سوى رابطة المصلحة البحتة، والإلزام القاسي بـ "الدفع نقدا". وأغرقت الرعشة القدسية للورع الديني، والحماسة الفروسية، وعاطفة البرجوازية الصغيرة، في أغراضها الأنانية المجرَّدة من العاطفة، وحولت الكرامة الشخصية إلى قيمة تبادلية، وأحلّت حرية التجارة الغاشمة وحدها، محل الحريات المُثبَتة والمكتسبَة التي لا تحصى. وبكلمة، أحلّت استغلالا مباحا وقحا مباشرا وشرسا، محل الاستغلال المُغلَّف بأوهام دينية. فالبرجوازية جرّدت كل الفعاليات، التي كان يُنظر إليها حتى

ذلك الحين بمنظار الهيبة والخشوع، من هالتها. فحوّلت الطبيب ورجل القانون والكاهن والشاعر والعالم، إلى أجراء في خدمتها. والبرجوازية نزعت حجاب العاطفية عن العلاقات العائلية وقَصَرتها على علاقات مالية بحتة".

ثم يتحدث البيان عن طبيعة الرأسمالية القائمة على تفتيت المجتمع كل مرة لتوجد مجتمعاً جديداً باحتياجات جديدة ليشتري منتجها الجديد فتبقى في ثورة انتاج مستمرة لا تنقطع، فيقول : "والبرجوازية لا تستطيع البقاء بدون أن تُثوِّر باستمرار أدوات الإنتاج، وبالتالي علاقات الإنتاج المجتمعية. بخلاف ذلك، كان الحفاظ على نمط الإنتاج القديم، بدون تبديل الشرط الأول لبقاء كل الطبقات الصناعية السالفة. وهذا الإنقلاب المتواصل في الإنتاج، وهذا التزعزع الدائم في كل الأوضاع المجتمعية، والقلق والتحرك الدائمان، هذا كله يميّز عصر البرجوازية عمّا سبقه من عصور. فالعلاقات الجامدة الصَّدئة مع ما يستتبعها من تصوُّرات وأفكار قديمة موقّرة، تتفكك كلها، وكل جديد ينشأ يهرم قبل أن يصلُب عوده، والتقسيم الفئوي القائم يتبدد هباء، وكل ما هو مقدّس يدنّس، والناس يُجبرون في النهاية على التفرّس في وضعهم المعيشي، وفي علاقاتهم المتبادلة بأعين بصيرة. وحاجة البرجوازية إلى تصريف دائم لمنتجاتها، متسع باستمرار، تسوقها إلى كل أرجاء الكرة الأرضية. فلا بد لها من أن تُعشعش في كل مكان، ومن أن تنغرز في كل مكان، ومن أن تقيم علاقات في كل مكان".

قد يكون كل ما سبق ذكره من كلام ماركس يدور حول ما يحدث داخل المجتمع الواحد في البيئة الرأسمالية، لكن الخطر الأكبر أو ما أسميه "مصيدة افتقار الكل للكل" هو ما ينتج عن الرأسمالية على نحو أممي بين الدول. فكلما تعاظمت الرأسمالية كلما زاد تكتل رؤوس الأموال حتى باتت ظاهرة اندماج الشركات المليارية العملاقة أمراً شائعاً. لقد انتقل الصراع من المجتمعات المغلقة داخل الدول إلى مرحلة الصراع العالمي على أسواق بقية سكان الكوكب!. فقد عاد الإنسان السوبرمان من جديد ليكون الخليفة المنتظر للبشرية ولكن هذه المرة على صهوة الدولار، تسبقه آلته الإعلامية الرهيبة المبشرة بالرخاء والرفاهية والانخلاع من إرث الأجيال السابقة التي ينبغي أن لا تعنينا في شيء!. ومنذ أن اخترع ستيف جوبز هاتفه الذكي ورسم عليه تفاحة مقضومة ترمز لتفاحة آدم التي أكلها والرأسمالية تنظر للعالم الثالث بعين الانقضاض الجشع. يقول الله عز وجل عن آدم وحواء حين أكلا من الشجرة "فبدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة". وكذلك تفاحة ستيف جوبز المقضومة كان يفترض بكل من يأكل منها أن يصبح عارياً من كل ما علق به من أسلافه السابقين، فهذه هي الخطوة ما قبل الأخيرة "على خط الإنتاج "، خطوة نضج العولمة الثقافية الصانعة لفكرة " الجيل الأول باستمرار"، والتي ستتبعها آخر الخطوات بتنصيب الدولار حاكماً على الجميع !.

مستعمرة الأيدي العاملة

الاستسلام للحتمية أمر مخيف!. إنه مخالف للفطرة وللإيمان وللحرية، إنه العبودية ذاتها!. وكم هو خيار انتحاري أن ترمي حكومة ما بنفسها في شباك الرأسمالية لتتورط ورطة لن تستطيع الخروج منها على مدى سنوات طويلة!. لو لم تكن الرأسمالية نظاماً قطبياً تتحكم فيه مراكز معينة في العالم لكان من الممكن التعايش معه والاعتماد عليه دون شعور بالخوف تجاه الأمن القومي لأي دولة حتى لو تجاهلنا أثره التدميري على المجتمعات في الداخل. لكن الرأسمالية منذ نشأتها وهي محكومة بقنوات معينة تطورت كثيراً حتى أصبحت هي شرايين البشرية.

أصل الفكرة الرأسمالية لا غبار عليه، فحين توصف بأنها تدعم الملكية الفردية الخاصة للسلع وأدوات الإنتاج وتهتم بالتنمية الاقتصادية والربح فهذا هو النمط الطبيعي للتجارة. كما أن ارتفاع مستوى الجودة الناتج عن حرية المنافسة في السوق وكذلك تنوع السلع واستمرار تدفقها وتوفرها للناس ودعم الابتكار، كل هذا شيء رائع وقدم للبشرية ما لم تقدمه الشيوعية التي تمنع الملكية وتقيد التجارة. هذا هو الجانب الطبيعي للتجارة حين تتوفر لها البيئة النزيهة وتحرر من الاحتكار ويؤمن فيها بالعلم وبحق الجميع في التعليم والعمل. الرأسمالية لم تصنع كل ذلك لأنه كان موجوداً قبل خروج الرأسمالية وتكرر حدوثه في حضارات سابقة قديمة وحديثة على فترات متقطعة. ما حدث في الرأسمالية هو أنها لم تكن ممارسة تجارية

طبيعية تحدث بالتوازي والتكامل مع منظومات الحياة الأخرى سواء الدين أو المنظومات الأخلاقية أو التشريعات الحكومية ولكنها جاءت لتهمين وتصنع كل ذلك ليكون في خدمتها!. وطالما أن جذر الرأسمالية هو رؤوس الأموال وطالما أن الأموال يملكها أصحاب رؤوس الأموال فهذا النظام بأكمله يعمل لخدمة أشخاص معينين أو طبقة معينة ويخضع لتأثيرهم، ولكي لا أطيل الكلام بهذه النقطة تستطيع البحث والقراءة عن ثلاث عوائل فقط ومدى تأثيرها على اقتصاد العالم وهي عائلة روتشيلد ومورغان وروكفيلر.

العولمة ليست مشكلة أخلاقية وقومية فقط، ولا تهدد الهوية دون سواها من خيارات الحياة. العولمة تكمن خطورتها في أنها حين تتحول لعولمة استهلاكية ستجعل ضروريات الحياة لأي مجتمع في أيدي مراكز القوى الرأسمالية. أيضاً تحدث كارل ماركس عن ذلك قبل مائة وستين عاماً حيث يقول : « والبرجوازية، باستثمارها السوق العالمية، طبَّعت الإنتاج والاستهلاك، في جميع البلدان، بطابع كوسموبوليتي، وانتزعت من تحت أقدام الصناعة أرضيتها القومية وسط غم التقليديين الشديد. فالصناعات القومية الهرمة دُمّرت وتدمَّر يوميا لتحل محلها صناعات جديدة، أصبح اعتمادها مسألة حيوية بالنسبة إلى جميع الأمم المتحضرة. صناعات لم تعد تستعمل المواد الأولية المحلية، بل المواد الأولية من أقصى المناطق، صناعات لا تُستهلك منتجاتها في البلد نفسه فحسب، بل أيضا في

جميع أنحاء العالم. فمكان الحاجات القديمة، التي كانت المنتجات المحلية تسدُّها، تحُل حاجات جديدة تتطلب لإشباعها منتَجات أقصى البلدان والأقاليم. ومحل الاكتفاء الذاتي الإقليمي والقومي والانعزال القديم، تقوم علاقات شاملة في كل النواحي، وتقوم تبعية متبادلة شاملة بين الأمم». انتهى كلامه.

كيف ستستطيع الدول النامية أن ترقى في علاقاتها مع الدول الصناعية من مرتبة الاحتلال الاقتصادي إلى مرتبة التبادل الاقتصادي إن كانت كل منتجاتها متوفرة لدى الدول العظمى التي سيحتاجونها في كل شيء؟!. كل ما تفعله تلك الدول المُستعمَرة اقتصادياً هو أنها ستقترض من البنك الدولي لتشتري منتجات الدول التي تسيطر على البنك الدولي، وستبقى تدفع لتلك الدول العظمى مرتين! مرة حين تسدد قروضها ومرة أخرى حين تسدد احتياجاتها من المنتجات الضرورية في مجال السلاح والصناعة والبنية التحتية والخدمات والاستثمار!. كيف ستستقل هذه الدول في قرارها السياسي وهي لا تستطيع البقاء في الوجود بمفردها؟!. أما شعوب تلك الدول فسيجدون الشركات عابرة القارات تدير البلاد بأكملها بعد أن خضعت حكوماتها لشروط الإقراض والاستثمار المطلوبة. سيكون أصحاب رؤوس الأموال في أقاصي الأرض هم الحكام الفعليين لشعوب تلك الدول!. هم الذين يبنون لهم أوطانهم ويشغلون الأيدي العاملة فيها ويصنعون لهم منتجاتهم

التي يستهلكونها بل وأيضاً يسنون لهم التشريعات من خلال حكوماتهم المغلوبة على أمرها. ستكون وظيفة الحكومات منحصرة في ضبط الأمن والإدارة التنظيمية وجني الضرائب من المواطنين ومن الشركات الأجنبية. وطالما أن الشركات المهيمنة على الأرض لن يستطيع أحد منافستها لضخامتها وعلاقاتها السياسية مع الدول فسيبقى شعب كل دولة نامية محبوساً في طبقة الموظفين الأجراء لدى صاحب رأس المال الأجنبي وستتحول هذه الدول إلى مجرد مزارع لتسمين رؤوس الأيدي العاملة!.

دورة حياة العبد السعيد

لم يسبق للإنسان في قصته الطويلة على الأرض أن كان محكوماً بالمال في كل نواحي حياته خارجياً، ونواحي روحه وعقله داخليا كما هو عليه اليوم!. فعلى مر التاريخ عاشت أجيال كثيرة من البشر لأجل الدين والعرق والقبيلة والإنسان والفن والأخلاق والمجتمع، فأنتجت لنا كل ما تزخر به ذاكرتنا من الأسماء الخالدة والقصص الإنسانية والمنظومات الاجتماعية والقومية. كل الشرائع وكل المذاهب وكل الفن وكل الجمال وكل الأدب وكل القصائد!. منذ أن دخل الاعلام كمحرك أساسي من محركات الحضارة الإنسانية والبشرية بدأت تفقد نقاطها المرجعية في تصور الحياة ومكوناتها. وقد أشار إلى ذلك ﷺ حين أخبر أن من اشراط الساعة أن ينطق الرويبضة ثم عرّفه بأنه «الرجل التافه يتحدث في أمر العامة». فالرويبضة ليس شخصية إسلامية بل هو شخصية كونية عالمية تخرج في أي مجتمع!. الإعلام الذي يبني التصورات والمعاني للأشياء دون معايير ولا أصول حقيقية ويسمي الأشياء بغير اسمها حين امتلك القدرة على مخاطبة الرعاع الدهماء من بسطاء البشر في كل مكان!.

يتكرر في مدارس الأطفال أن يقف المعلم النبيه بين تلاميذه ليسألهم بكل بلاهة : ليخبرني كل واحد منكم ماذا يريد أن يكون حين يكبر؟!!. فبعضهم يقول طبيباً والآخر مهندساً أو شرطياً، والمعلم يصفق بحرارة لإجاباتهم على سؤاله السخيف!. حين تقنع الطفل بأن يكون شيئاً بعينه أو حتى تشجعه على هذه الفكرة فأنت

تقتل الإنسان فيه!. لا ينبغي لأي إنسان العيش بشخصية أخرى غير شخصية الإنسان الأول!. إنسان الله الذي جاء ليمارس جدله الكثير واندهاشاته اللذيذة ومغامراته الاستكشافية تحت يقين التوكل على الله والعبودية لأمره. لا شيء يستحق أن يرهن الإنسان عمره وخياله لأجله بما في ذلك الشعارات المنادية بإعمار الكوكب وصناعة الحضارة، هذه سنوات عمري ولن أعيش فيها لشيء سوى «قصة الإنسان»!.

يدخل الطفل إلى المدرسة وكل من حوله يخبره أنه منتج تتم صناعته الآن ليتم استهلاكه لاحقاً. تمر عليه أكثر من عشرين سنة وهو يعيش مهمته الطويلة التي كل لحظة فيها تقول له بأنه يعاني كل ذلك لأجل الوظيفة والمال، وهذا يحدث للأطفال في جميع أنحاء العالم. لقد خسرت الطفولة الكثير من معانيها كما خسر الإنسان عموماً الكثير من معانيه. كيف نعيش إذن؟! وماذا نكون؟!. هنا يأتي دور المعرفة التي تشكل روح التماهي والتناغم مع حتميات الحياة والواقع وتمنح الفرد القدرة على التمييز بين وجوده في «الأجندة الحمارية» الحتمية ككائن متكسب وبين وجوده في «قصة الإنسان». ليست هناك مشكلة في الدخول في أي مشروع حياتي طالما أنك نعرف موقعك ودورك فيه بالإضافة لمعرفة مكانة هذا المشروع في الكل الكبير في حياتك. رعى الأنبياء الغنم وعمل كبار علماء الدين في التجارة والحرف وآخرهم الشيخ محمد ناصر الدين

الألباني المتوفى ١٩٩٩م كان يحترف اصلاح الساعات. وكذلك الفلاسفة فبعضهم كان خادماً أو عتالاً!. المستنيرون فعلاً هم الذين لا يعانون من تلازم الرسالة الحياتية مع سبل الكسب والعيش ولم تكن ارواحهم معتقلة في سجن الهاجس المعيشي الكدحي فكان لحياتهم طعمها ولمرورهم في الوجود ثقله!.

كيف تقبل بأن تمضي زهرة شبابك لا هم لك إلا لحظة استلام ورقة الاختبار ثم تمضي بقية ما بقي من طموحك في البحث عن وظيفة ثم تدخل في دورة التكاثر الطبيعية ليستمر امداد العالم بمزيد من الأيدي العاملة!. ستجد نفسك تضمحل شيئاً فشيئاً في حالة فناء اجتماعي بين هموم العائلة والمجتمع، فمتى ستكون أنت أنت؟!!. لابد من صناعة "اهتمامات موازية" بداخلك ترافقك طوال رحلة حياتك لكي تشعر بطعم الحياة وأنك لست مجرد دودة في مستعمرة من الديدان المتشابهة. حين تعمل لدى صاحب رأس المال فأنت تلعب دور "الأجير" الذي مهما أبدع سيبقى أجيراً ثم ستخرج من عملك لتمضي بقية اليوم تتبضع منتجات شركات أخرى يعمل فيها أجراء آخرين مثلك!. ستمضي حياتك ناقلاً للأموال بين أيدي أصحاب رؤوس الأموال وقد تكون مستمتعاً وسعيداً في دورة الحياة هذه لكنك دون اهتمامات سامية ستنام كل ليلة وأنت تدرك بأنك ترس بليد يدور في ماكنة بلهاء اسمها العالم!.

آمناً في سربه...!

لم تعد فكرة السرب موجودة الآن الا شكلياً، فحين قال عليه الصلاة والسلام «من أصبخ منكم آمناً في سربه معافى في جسده، وعنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا» صححه الألباني، لم يكن يتحدث عن السرب كمكان فيه مجموعة من الناس ولكنه يشير إلى الانتماء والمشاكلة والتشابه لأن سرب الطيور غالباً لا يتحرك إلا باتفاق وتناغم. قد تجلس العائلة الواحدة الآن في غرفة واحدة وكل فرد منها يحلق في سرب يخصه لا يعلم به أحد!. مقومات الاكتفاء الدنيوي التي ذكرها النبي ﷺ متمثلة في العافية والطعام والسرب قد يختل شيء منها فيصيبك «قلق وجودي» سيؤرق حياتك.

اليوم نحلم فرادى ونعيش الواقع في جماعات!. أسرابنا وهمية لا وجود لها على الأرض، ولأجل هذا تبقى أحلامنا ايضاً وهمية. هل فكرت بذلك الشعور الحميم الذي تشعر به حين تنزل في مطار بلدك بعد غربة طويلة عنه؟!. هذا الشعور هو شعور العودة إلى السرب!. شعور الدخول بين أجساد أناس يشبهونك كثيراً، أناس تستطيع تفسير كل شيء يتعلق بهم. وبعد طول مكوث في بلدك ستلاحظ عودة الغربة إلى قلبك من جديد فأنت الآن تعيش تفاصيلاً لا تراها في وجوه بني بلدتك!. ستهرب إلى سربك الأصغر، عائلتك القريبة منك وستجد روح السرب في الطعام والشراب واللعب والحديث وشيئاً فشيئاً ستكتشف أن اهتماماتهم لا تتفق على شيء وأن لكل واحد منهم حياة أخرى لا تعنيك، لتجد نفسك في قعر الغربة

الوجودية «غريب كصالح في ثمود»!.

يعتقد الناس بأن التقنية ووسائل التواصل هي السبب في ابتعاد الناس عن بعضهم البعض وانهيار العلاقات الاجتماعية. هي سبب ضئيل جداً فالسبب الأهم من ذلك هو طغيان شخصية الإنسان الممارس على شخصية الإنسان الحقيقي. الممارسة تجعل المعنى مغيباً وتعلي من شأن الحركة والجهد والميكانيكا. وكلما تقلصت دوائر المعاني كلما قل تقاطع الاهتمامات الثرية بين الناس، تلك الاهتمامات المتشبعة بالفكرة والعاطفة وروح الحياة. هل لاحظت أنك حين تنظر لكرات البلياردو متناثرة على الطاولة وأنت لا تلعب البلياردو ستراها كلها متشابهة!. كل الكرات كروية بنفس الحجم والوزن وكثير منها بنفس اللون وكلها ملساء ناعمة، فهذه هي المعاني الثرية لها. بمجرد أن تبدأ باللعب سيتغير كل شيء!. لن يعنيك كونها كروية ولا وزنها ولا لونها ولا نعومة ملمسها وكل ما يعنيك هو أن لا تضرب كرة من كرات الخصم!. كل كرة على الطاولة لن يكون بينها وبين أية كرة أخرى أية علاقة حتى تصطدم بها!. هذا هو الفرق بين الإنسان الحقيقي والإنسان الممارس الذي تصنعه الرأسمالية الليبرالية.

فإن كان الدخول في عالم الإنسان الممارس بات أمراً حتمياً فلا سبيل لإنقاذ نفسك من الغربة الوجودية سوى بتوسيع دائرة المعرفة والمعنى الشمولي في شخصيتك وسلوكك وحياتك، وأن يعيش العالم

فيك قبل أن تعيش أنت فيه. هذا الشيء سيمدك بشعور «السرب» حين ترى أغلب الأشياء حولك تنتمي إليك بشكل تلقائي بما في ذلك الذين كانوا على ظهر السفينة مع نوح عليه السلام!.

تم بحمد الله